المفردة العربية بين الأصالة و الاستعمال

م.د. سلمان صبار باني
كلية الآداب /جامعة الكوفة

مقدمة:

تتألف المفردة من أصوات وحروف، الأصوات لها مواقع وصفات، والحروف لها معانٍ وإيحاءات، والمفردة لها جذور وصيغة وارتباط وتصريف ومعنى ودلالة، وتاريخ ونشأة وأصالة. وهكذا تظهر المفردة العربية في ثنايا هذا البحث على أنها منظومة متكاملة تلتقي مكوناتها وتأتلف أركانها فتنطق بالمعنى الذي اجتمع فيها نتيجة اندماج كل تلك المكونات وانسجامها. وهي بعد ذلك لها أبنية ومقاييس بموجبها يتم تصنيفها على شكل مجاميع لكل منها أوزان معلومة واستعمالات خاصة ومعانٍ محددة، تتدرج بين طياتها أقسام الكلام الثلاثة، وما يتصل بها من فروع وما يلتقي معها من علوم ومباحث ودراسات. ثم لا تلبث هذه المفردة أن تدخل في ميدان اللغة الواسع بمستوياته الأربعة من نحو وتركيب وصرف وصوت ودلالة، وما تشتمل عليه من أحكام، ومقاييس، وحدود، وقوانين. كل هذا الذي ذكرناه وغيره من الدراسات النقدية، والبلاغية، ومدونات التفسير على تعدد مناهجها واتجاهاتها وآليات تحليل النصوص فيها، ومعرفة الأساليب، وتحديد أنماط الخطاب، وتعيين مواطن الجودة، والوقوف على ملامح الضعف والخلل في البناء والتأليف إنما ينطلق من دراسة المفردة العربية، ويدور حولها، ويحوم في آفاقها الممتدة إلى لغة الإعجاز القرآني التي كانت وما تزال السرَّ الذي بهر العقول وحيَّر أهل العلوم فيما اشتمل عليه من دقة الصياغة، وروعة البناء، وحسن التأليف، وجمال العبارة والتركيب. ومن هنا جاء هذا البحث في محاولة لكشف بعض أسرار المفردة العربية وبيان صفاتها وما امتازت به من خصائص

كانت في مقدمة العوامل والأسباب التي جعلت من اللغة العربية لغة تتصف بالسعة والشمول، والدقة والأحكام، والقدرة على التحول والتجدد والاستمرار والإحاطة بكل جوانب الحياة والموجودات والأفكار والعلوم والمعارف والآداب والفنون على تعددها وتنوع ميادينها وأبعادها، حتى بلغت اللغة العربية منزلة ونالت شرفاً لا تنازعها فيه لغة أخرى.

مدخل:

اللغة مرآة الحضارة، ومصباح الحياة، ودليل الحائر، وسبيل الباحث، وسجل التراث، تتجدد عبر الزمن، وتتوهج عند المداومة، فهي الوسيلة التي يعبر بها المرء عما يدور في خلده من خواطر ومشاعر وأفكار.

وهي تقوم، على نظام من الرموز يستدعيها الفعل الكلامي تتلاءم وتتمثل على شكل مفردات يضم بعضها إلى بعض على وفق نظام متبع له قواعد ومقاييس دقيقة يجب على مستعمل اللغة أن يلتزم بها ولا يحيد عنها؛ فلها مستوى صوتي يجب استعماله بحسب أسس معنية وآخر صرفي يتكون من مجموعة صيغ تخضع لأصول محددة درجت عليها البيئة اللغوية فلا بد من مراعاتها. ومثل هذا يقال عن النحو، والتركيب، والدلالة. والأساليب البلاغية. ولمّا كانت المفردة اللغوية هي المحور الذي يدور حوله هذا النظام الدقيق برمته فإن ذلك يدعونا إلى الوقوف عندها ودراستها بمزيد من العناية والاهتمام، وأن يتم اختيارها من دون غيرها لتأخذ مكانها من الصياغة والتركيب، لتوحي بالمعنى المراد والدلالة المطلوبة على نحو دقيق ومحدد.

ومن بين أهم الصفات التي امتازت بها المفردة العربية هي أن الأفعال منها تحمل بين طياته دلالة على الفاعل. وهذا لا نجده في غيرها من اللغات ومنها الانكليزية التي يأتي الفعل فيها مجرداً (infinitive) لا يتضمن اسماً أو دلالة تشير إلى الفاعل أو صفته. أما في العربية فإن الفعل غالباً ما يتضمن ضمير الاسم بنوعيه من حيث التذكير والتأنيث وكذلك عدده من حيث الإفراد والتثنية والجمع فإذا ما ذكر الفعل مثل (كتب) أقتضى ذلك أن يكون هناك كاتب مذكر مفرد ولا سبيل إلى غير ذلك. قال الزجاجي: (والفعل إذا ذكر لم يكن بد من الفكر في فاعله لأنه لا ينفك منه ويستحيل وجوده من غير فاعل) [١] وذلك ينسجم مع قوانين الوجود من أن لكل أثر مؤثرا ولكل فعل فاعلا. ومن هنا نشأ الاعتقاد بعدم جواز تعدد الفاعل بخلاف معمولات الفعل الأخرى لأن الفاعل عمدة وسائر المعمولات بعده فضلة فاستشكل النحاة حذف الفاعل في مواضع مخصوصة نصوا عليها[٢]. هذه هي القاعدة المطردة في العربية، وإن وجد أحياناً ما يخالفها

في كون الفعل لا يشترط فيه مطابقة الفاعل من حيث العدد والنوع فإنه أقل استعمالاً وله أحكام معينة ذكرها النحاة[٣].

فما أسرار المفردة العربية؟ وكيف تتألف؟ وما خصائصها؟ وإلى أي مدى بلغت عناية العرب بلغتهم؟ وكيف جرى استعمالها في القرآن الكريم؟ كل هذه المحاور وغيرها نحاول الوقوف عندها واستعراضها بشيء من التفصيل متبوعة بنماذج وشواهد للدراسة والموازنة.

الدراسة : ملامح الأصالة:

المبحث الأول: عناية العرب بلغتهم:

أحب العرب لغتهم، وافتتنوا بها، وبهرتهم قدرتها العجيبة على الإفصاح عن خلجات النفس، والتعبير عن العواطف والمشاعر والانفعالات والأهواء والأفكار والرغبات والهواجس التي تدور في النفوس، وتتوارد على الخواطر، فدفعهم ذلك إلى أن يبالغوا في العناية بها فاتبعوا من أجل ذلك أساليب البحث الدقيق عن أصولها وخصائصها وألفوا الكتب التي تتوخى صيانتها والمحافظة على أصالتها ونقائها، وقد كان نزول القرآن الكريم باللغة العربية في مقدمة الدوافع والأسباب التي أدت إلى زيادة اعتزاز العرب بلغتهم واشتداد حفاوتهم بها؛ لأنهم أدركوا أن العناية بها سبيلهم إلى فهم النص القرآني والوقوف على مراميه، وطريقهم للحفاظ عليه من تسرب اللحن والخطأ إلى تلاوته ومن ثم عدم القدرة على تحديد معاني ألفاظه، فظهرت من أجل ذلك المؤلفات وصنفت الكتب وقامت الدراسات وتوسعت البحوث في ميادين اللغة المختلفة وعلومها المتعددة ونحاول في الصفحات التالية الوقوف على بعض مظاهر تلك العناية.

المفردة هي أول ما وضع من الكلام، وفيها تبدو اللغة في أبسط مظاهرها لأن دلالتها هي الفكرة الواحدة البسيطة سواء أكانت دلالة مستقلة أم مشتركة مع مفردات أخر على نحو الترادف. وتتألف كل مفردة من وحدات صغيرة تسمى الواحدة منها حرفاً أو صوتاً لغوياً وقد عني العلماء العرب منذ عهد مبكر بدراسة (الأصوات اللغوية) منفردة قبل أن تتألف فتنشأ منها المفردات.

ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) أول من تناولها في دراسة عميقة ودقيقة[٤]. ثم تبعه العلماء على هذا الوجه من البحث يولونه عنايتهم ويصرفون إليه اهتمامهم حتى كان لنا فيه حصيلة ضخمة من المباحث القيمة أطلق عليها المحدثون (الدراسات الصوتية) فبعد أن أدركوا حقيقة الصوت اللغوي وسبب منشئه شرعوا يتتبعون مخارجه فوجدوا أنها مبثوثة في الفم من أقصى الحلق حتى الشفتين وعددها ستة عشر مخرجاً[٥]. ويأتي اهتمامهم بدراسة الحروف من

باب الإحاطة التامة بفقه اللغة؛ ولأنها مدخل لفهم بنائها العام ولأجل الوقوف على خصائص تلك الحروف ومعرفة مزاياها عندما يأتلف بعضها مع البعض الآخر، فكان تذوقهم للحروف وإعادة النظر في طبيعتها سبيلا إلى تذوق المفردات التي تنجم عن صياغة تلك الحروف، فلاحظوا أن تلك الحروف ليست من طبيعة واحدة ولا ذات منطلق واحد، فمنها ما ينحصر فيه الصوت فلا يجري بسهوله (كالدال، والطاء، والتاء، والفاء) ومنها ما ينفذ خلاله الصوت ويجري فيه الهواء (كالصاد والسين والزاي) ثم عادوا فصنفوها بحسب صفاتها، ووضعوا لكل مجموعة منها لقبا ينمُّ على مالها من صفات وخصائص فمنها (المجهور، والمهموس، والشديد، والرخو، والمستعلي، والأذلق، والمصمت، والصحيح، والمعتل) [٦]. وبعد أن تمت لهم دراسة الحروف منفردة والوقوف على خصائصها وأصولها شرعوا يراقبونها حين تتضام وتتجاور لتتألف منها المفردات. فقد أدرك الخليل أن اللسان العربي قد ينطلق بأصوات خاصة ولا ينطلق بها غيره كصوت (الضاد) الذي هو صوت عربي خالص امتازت به العربية حتى أضيفت إليه وسميت لغة الضاد، وكذلك صوت (الظاء) إذ يرى أنه حرف عربي خص به لسان العرب لا يشاركه فيه أحد من سائر الأمم[٧] وتابعه علماء اللغة فيما ذهب اليه. فيرى ابن جني أن (الظاء لا توجد في كلام النبط وإذا وقعت قلبوها (طاء) ولذلك قالوا ناطور وإنما هو ناظور فاعول من نظر)[٨] وقال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): (ومما اختصت به لغة العرب (الحاء والظاء) وزعم ناس أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم. وروي عن أبي عبيدة أن العرب انفردت بالألف واللام اللتين للتعريف كقولنا الرجل والفرس؛ فليس في شيء من لغات الأمم غير العرب وأن الهمزة لا تكون في عرض الكلام إلا في العربية) [٩]. ووجد علماء العربية أن العرب لا تألف في كلامها تجاور الحروف المتقاربة في مخارجها، فإذا تجاور حرفان متقاربان في المخرج في كلمة واحدة تنافرا، ويزداد التنافر شدة إذا كانا من حيز صلب لا يؤدي عمله بسهولة مثل حيز الحلق، فالهاء والعين، وهما متقاربان في المخرج، لا يأتلفان في العربية إلا إذا تقدمت العين نحو (عهد)، و(عهن) أو كانا مفصولتين نحو (هرع)، و(هلع) وعلى هذا الأساس أنكر الخليل لفظة (الهعخع) وقال: (سمعنا كلمة شنعاء فأنكرنا تأليفها)[١٠]، ويرى الخليل أن (القاف، والكاف) لا يأتلفان إلا في كلمات معربة وكان يقول: (تأليفهما معقوم في بناء العربية لقرب مخرجيهما)[١١].

ومن بين تلك الصفات الأخرى التي امتازت بها العربية نذكر:

١ . أحرف الذلاقة :

من المقاييس التي وضعها علماء العربية للمفردة أن الأبنية الرباعية والخماسية لا تعرى من واحد او أكثر من أحرف الذلاقة. قال ابن جني: (أحرف الذلاقة ستة هي (الراء، واللام، والنون، والفاء، والباء والميم. لأنه يعتمد عليها بذلق اللسان وهو صدره وطرفه)[١٢]. وقال الخليل: (فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من الحروف الذلق والشفوية فاعلم أنها مولدة وليست من صحيح كلام العرب) [١٣].

٢- أحرف العلة :

لاحظ الخليل أن بعض الحروف ضعيف لا يقاوم طوارئ الاستعمال فلا يكاد يحتفظ ببنيانه فهو ينتقل من حال إلى حال عند الصرف وبعضها قوي مهما تقلب في الاستعمال. فوصف الأولى بالاعتدال والثانية بالصحة. بقوله: (الحروف العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون صحاحا لها أحياز ومدارج وأربعة أحرف هوائية هي الواو والياء والألف اللينة)[١٤] وكان يعد الهمزة من ضمنها وبناءً على ذلك انقسمت المفردات العربية إلى صحيحة ومعتلة.

وقد اعتمد عليها علماء العربية في تحديد سمات المفردات ذلك أنهم وجدوا أن أخف التراكيب عند العرب ما كان مؤلفا من ثلاثة أصوات، فإذا زاد على الثلاثة ثقل على ألسنتهم؛ ولذلك كانت الكلمات التي تزيد أصولها على الثلاثة أقل من الثلاثيات. والخماسيات أثقل التراكيب. ولما كان العرب مضطرين أحيانا إلى استعمال ما زاد على ثلاثة أصول راحوا يخففون شيئا من ثقل هذه الأبنية فيضمنونها حروفا تنطلق بها ألسنتهم بخفة ويسر وهي الحروف التي أطلق عليها حروف الذلاقة.

واما الأبنية الرباعية فإنها متوسطة الثقل، فإن خلت من أحرف الذلاقة يعوض عنها (بالعين والقاف) أو أحداهما أو (بالسين والدال) أو أحداهما[١٥] مثل (عسجد) فلو جاءت البنية رباعية خالية من أحرف الذلاقة وفيها العين وحدها أو السين وحدها عدوها من الدخيل، ولو كانت روايتها عن ثقة، من ذلك كلمة (قعثح) فإنها من الأبنية الدخيلة التي لم يألفها العرب[١٦] وهكذا استطاعوا حصر الأوزان والكلمات التي بنيت عليها التراكيب العربية. جاء في كتاب سيبويه قوله: (ليس في كلام العرب (فاعيل) ولا (فاعول) ولا (فاعلاء) ولا فِعلى ولا فُعلى ولا فعلوان)[١٧] ومن ذلك فأنهم قرروا أن الكلمات العربية من حيث أصولها على أربعة أنواع: ثنائية، وثلاثية، ورباعية وخماسية. فالثنائي: ما كان على حرفين: -نحو: قد وهل ولم، ونحوه من

من الأوزان والحروف. والثلاثي: –من الأفعال مثل ضرب وخرج ومن الأسماء قمر وجمل وشجر. والرباعي: –من الأفعال مثل: دحرج وهلج، ومن الأسماء مثل عقرب وجندب. والخماسي من الأفعال مثل اقشعر واستمر، ومن الأسماء مثل سفرجل وشمردل وعقنقل.

ووجدوا أن الأسماء في العربية لا تقل عن ثلاثة أصول، ولا تزيد على خمسة قال الخليل: (ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم فاعلم أنها زائد البناء وليست من أصل الكلمة مثل (قرعبلانة) إنما أصل بنائها (قرعبل) مثل عنكبوت أنما أصل بنائها (عنكب) [١٨].

وقال في هذا المضمار: (إن الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف: حرف يبتدأ به، وحرف تحشى به الكلمة وحرف يوقف عليه فهذه ثلاثة أحرف مثل سعد وعمر ونحوها من الأسماء) [١٩]

٣. نظام التقليبات :

ومن أمارات اهتمام الخليل باللغة وتعمقه في دراسة المفردة، أنه ابتكر نظام التقليبات الذي استطاع بواسطته إحصاء اللغة إحصاءً رياضياً اشتمل على المستعمل من مفرداتها والمهمل ولم يذكر في معجم العين منها إلا ما كان مستعملاً.

فقد روى السيوطي عن حمزة بن الحسن الأصفهاني (أن الخليل ذكر في كتاب العين عدداً أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من غير تكرار أثنا عشر ألف ألف ((أي أثنا عشر مليون وثلاث مائة وخمسة ألف وأربع مائة واثنا عشر كلمة (٤١٢، ٣٠٥، ١٢) كلمة))[٢٠]

فقد تأمل الخليل المفردات الثنائية فوجدها تتصرف على وجهين هما صورتها الأصلية ومقلوبها مثل (من، نم، وقد، ودق) وهكذا، ونظر في الثلاثيات فوجدها تتصرف على ستة أوجه مثل (ضرب، رضب، ربض، ضبر، بضر، برض) ونظر في الرباعيات فوجدها تتصرف على أربعة وعشرين وجهاً، ونظر في الخماسيات فوجدها تتصرف على مائة وعشرين وجهاً) [٢١].

وكان ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) قد عرض في كتابه (سر الفصاحة) لخصائص المفردة العربية ووضع ثمانية شروط لفصاحتها على قدر ما تخرج من هذه الشروط تبعد عن الحسن والفصاحة. كان الشرط الأول متعلقاً بتأليفها وطريقة بنائها، ولم يخرج فيه عما قرره الخليل وهو أن تتركب المفردة من حروف متباعدة المخارج، ثم ذكر أن الخليل قسم التأليف ثلاثة أقسام هي:

الأول: تأليف الحروف المتباعدة وهو الأحسن المختار.

الثاني: تضعيف الحرف نفسه وهو يلي الأول في الحسن.

الثالث:- تأليف الحروف المتجاورة المخرج.. وهو إما قليل في كلام العرب وإما منبوذ والشاهد على ما ذكرناه الحس والتذوق من المتكلم والمتلقي؛ فالكلفة في تأليف الحروف المتجاورة ظاهرة يجدها الإنسان من نفسه حال التلفظ.

ومن الحروف التي لم يتركب في كلامهم بعضها مع بعض: (الصاد والسين والزاي) فليس في كلام العرب مثل: بصز ولا حوس ولا سنر والعمدة في هذه كله واحدة)[٢٢].

ومن مقاييس الجودة في الكلمة أن تكون مؤتلفة الحروف سهلة الجري على اللسان عذبة الوقع في السمع، وأن كان بعض المحدثين يرى أن الألفاظ متنافرة الحروف أو غير المؤتلفة الأصوات قليلة مهجورة لا تذكر إلا عند التمثيل للفظ الرديء التأليف[٢٣]

٤. الميزان الصرفي :

وهو معيار لفظي اصطلح علماء اللغة على اتخاذه من أحرف (فَعَلَ) لوزن الكلمات العربية القابلة للتصريف لمعرفة أبنية الكلمة يلتزم فيه موافقة الموزون في هيأة من حركة وسكون وتقديم وتأخير وزيادة على أصل الكلمة.

لما كانت الكلمات في العربية ثلاثية أو رباعية أو خماسية أو سداسية، والثلاثي أكثرها استعمالاً فقد جعل علماء الصرف ميزان الكلمة على ثلاثة أحرف هي (الفاء، والعين، واللام) مجموعة في كلمة (فعل) ويأخذ هذا الميزان حركة الكلمة المراد معرفة وزنها. مثل (كَتَبَ) (فَعَلَ)[٢٤] ولقد اتخذ علماء اللغة هذه الكلمة ميزاناً صرفياً وذلك إنما يعود إلى جملة من الأسباب هي:

١. انهم اختاروه من لفظة (فَعَلَ) الثلاثية وذلك لأن أكثر الكلمات القابلة للتصريف على ثلاثة أحرف لا تنقص عنها.. ولا تزيد عن خمسة، فجعلوا الميزان ثلاثياً قابلاً للزيادة، وقابلوا أحرف الميزان بأصول الكلمة الموزونة فالفاء يقابلها أولها والعين يقابلها ثانيها واللام يقابلها ثالثها مع مراعاة موافقة الميزان لبنية الكلمة الموزونة من حركات وسكنات وترتيب الحروف وعددها.

٢. عموم دلالة لفظ (فعل) على الأحداث جميعاً وما في حكمها.

٣. توزيع مخارج أحرفها بالتساوي بين جهات جهاز النطق الثلاث فالفاء من المقدمة والعين من آخره واللام من وسطه.

٤. صحة أحرفها حتى تسلم من التغييرات التي تعتور أحرف العلة.

والصيغة من المقاييس التي وضعها علماء العربية لمعرفة نوع المفردة إن كانت اسماً أو فعلاً

أو حرفاً، ولأجل التمييز بين الثلاثي والرباعي والخماسي من الأسماء والأفعال ومعرفة أصول الكلمة من زوائدها ومعرفة الأصول المحذوفة من أحرف الكلمة ومعرفة التقديم والتأخير الحاصل في أحرف الكلمة في حالة ما يسمى بالقلب المكاني، ولهذا يكفي أن نقول هنا أن للأفعال صيغاً مطردة تميز بنيتها تميزاً واضحاً عن الاسم والحرف بمجرد النظر، وفي ذلك يقول الدكتور تمام حسان: (هناك صيغ محفوظة قياسية مبوبة إلى ستة أبواب للفعل الثلاثي، وهناك صيغ أخرى محفوظة قياسية للأفعال ما زاد على الثلاثة، ثمّ هناك صيغ أخرى محفوظة قياسية للأفعال ما زاد على الأربعة، ثم هناك صيغ أخرى لما بني للمجهول ومن هنا يمكن لنا أن نميز الفعل بهذه الصيغ من غيره من أقسام الكلام بمجرد معرفة الصيغة)[٢٥]

أما صيغ الأسماء فقد قسمت إلى مجرد ومزيد فالمجرد ينقسم على ثلاثة أقسام هي الثلاثي والرباعي والخماسي.

ثم ذكروا أن أوزان الاسم الثلاثي المتفق عليها عشرة هي (فعْل مثل سهم وَفَعلْ مثل قَمَر وبطل وفعِل يفتح فكر مثل كَتِف وحذِر وفَعُل بفتح فضم مثل عِضُد وفِعْل بكسر فسكون مثل حِمْل وفِعَل بكسر ففتح مثل عِنَب وفِعِل بكسرتين مثل إبل وهذا الوزن قليل حتى أن سيبويه (ت١٨٠هـ) ذكر أنه لم يرد منه إلا لفظة (إبل) وفُعْل بضم فسكون مثل قفْل وفُعَل بضم ففتح مثل حُرَد وحُطم وفُعُل بضمتين مثل عُنُق.

أما أوزان الاسم الرباعي المجرد المتفق عليها فقد حصروها في خمسة أوزان. وهو نصف عدد الثلاثي وهذه الاوزان هي:

١- فَعْلَلَ: بفتح أوله وثالثه سكون ثانية مثل جَعْفَر

٢- فِعْلِل: بكسرهما وسكون ثانية مثل زِبْرِج

٣- فِعْلُل: بضمهما وسكون ثانية مثل بُرْثُن

٤- فِعَلّ: بكسر ففتح فلام مشددة مثل قمطر وهو وعاء الكتب.

٥- فُعْلَل: بضم فسكون ففتح مثل جُنْدَب

أما أوزان الاسم الخماسي المجرد فإنها (أربعة) وهي:

فَعَلَّل: بفتحات مشدد اللام الأولى مثل سفرجل

فَعْلَل: بفتح أوله وثالثه سكون ثانيه وكسر رابعة مثل جحمرش وهي المرأة العجوز

فِعْلّل: يكسر فسكون ففتح مشددة اللام الثانية مثل قرطعب وهو الشيء القليل.

فُعَلّل: بضم ففتح فتشديد اللام الأولى مكسور مثل قذعمل وهو القصير الضخم من الإبل وخزعبل وهو الباطل. من ذلك يتضح أن الأوزان كثيرة الاستعمال في العربية من الأسماء هي ما كان

على ثلاثة أحرف وما عدا ذلك فإنه قليل ونادر.
أما المزيد من الأسماء فلا يتجاوز بالزيادة (سبعة أحرف) مثل احرنجام، واشهيباب وعضرفُوط وخندريس ودردبيس وهذه المفردات وما كان على وزنها وشاكلتها مهجورة يصعب تداولها، ابتعدت عنها الناس فلا تكاد تعثر عليها إلا في بطون المعاجم.
ولقد أحصى علماء اللغة أوزان المزيد فيه فكانت كثيرة حتى أنها بلغت ثلاثمائة وثمانية وثمانين مع ضعف في بعضها.
أما الفعل: فإنه يتقسم اعتماداً على مادته على ثلاثة أقسام هي الثلاثي والرباعي والخماسي. أما أقسامه بالاعتماد على هيأته الحاصلة من الحركات والسكنات فإنها سبعة وثلاثون باباً.
١- الثلاثي المجرد: لا يتجاوز مع كثرته وسعة استعماله ثلاثة أبنية: هي: (فَعَلَ، فَعِل، فَعُل) والسبب في عدم تجاوز هذا العدد المحدد هو المحافظة على الصيغة إذ إن الفاء لابد تكون مفتوحة دائما دلالة على المبنى للمعلوم لأنها تمثل العلامة الفارقة بين الفعل المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول. أما العين فقد تحركت بالحركات الثلاثة (الفتحة، الكسرة، الضمة) ولا تأتي ساكنة حتى لا تفقد الصيغة دلالتها بهيئتها على الفعلية. وليس للرباعي المجرد: -إلا وزن واحد هو فعْلَلَ[٢٦] ولقد استطاعوا بالاعتماد على هذا النظام القائم على الصيغة والإحصاء الرياضي تحديد معاني المفردات ذات الوزن الواحد سواء أكانت اسماً أم فعلاً.

٥. معاني الأبنية :

ومن هنا فإن الميزان الصرفي الذي استطاعوا بواسطته معرفة أوزان المفردات من الأسماء والأفعال وحتى الحروف، مكّنهم من تحديد المعاني التي تشتمل عليها كل طائفة من هذه الأوزان. وقد اعتمد علماء اللغة على هذه الأوزان في ميادين متنوعة من الأبحاث والدراسات اللغوية نذكر منها:
١- اعتماداً على معرفة الأوزان تم تحديد صيغ الأفعال والأسماء والحروف ومعرفة المجرد والمزيد، ومكّنهم ذلك من تحديد طبيعة الأفعال من حيث التعدي واللزوم والصيرورة والمطاوعة والمقاربة، وكذلك معرفة المشتقات بأنواعها مثل اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم الآلة وأسماء الزمان والمكان وغير ذلك.
٢- اعتماداً على معرفة الصيغ والأوزان تمكنوا من تصنيف الموضوعات اللغوية وإحصاء الأوزان التي تدل على كل واحد من مباحث اللغة المتعددة مثل الأوزان التي تدل على المبالغة أو على اسم الفاعل أو على الصفة المشبهة أو أوزان الفعل الثلاثي والرباعي وغير ذلك كما بيناه، فاستطاعوا من خلال ذلك وضع مقاييس

دقيقة وأحكام ثابتة لكل مبحث من مباحث اللغة على وفق نظام محدد إلى حد بعيد، ولما كان كل صنف من هذه الأوزان له دلالته المحددة فمكنهم ذلك من تصنيف المفردات بحسب ميزانها الصرفي لتوضع مع مثيلاتها من المفردات وحيثما ورد هذا الوزن فإنه يدل على هذا المعنى.

٣- إن تصنيف المفردات على هذا النحو من الدقة الذي مكنهم من معرفة طبيعة عملها ومعانيها ودلالاتها البعيدة والقريبة مهد لهم هذا كله السبيل إلى تحليل الجمل والتراكيب اعتماداً على معرفتهم المسبقة بميزان المفردة وصفتها وطبيعة عملها ودلالتها منفردة ومن ثم وهي تنتظم مع غيرها في السياق العام.

وكان لمثل هذه الدراسات والأبحاث الأثر الواضح في تحليل النص القرآني ومحاولة الوقوف على مراميه ومعرفة أسراره وهي غاية ما يسعى إليه علماء اللغة والتفسير. فقد استعان علماء اللغة والمفسرون بصيغ المفردات ومعاني الأبنية لمعرفة المعنى ومحاولة تحديد الدلالة لما ورد في ثنايا النص القرآني من ذلك ما جاء في الفرق بين (غافر، غفار، غفور) فقد استعمل غافر مع الذنب المفرد ولم يستعمله سبحانه مع الجمع قال تعالى: (غافر الذنب وقابل التوب)[٢٧] فإذا كثرت الذنوب جاء بصيغة المبالغة قال تعالى: (إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم)[٢٨] وقال جل شأنه: (قل ان كنتم تحبو ن الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) [٢٩]. وأما (الغفار) فقد ورد ذكره خمس مرات، ثلاث مرات منهن مقترنا باسمه العزيز نحو: (ألا هو العزيز الغفار) [٣٠] ولم يرد مقترنا باسم آخر غير اسمه العزيز، وورد مرتين غير مقترن باسم آخر وهما قوله تعالى (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) [٣١] وقوله تعالى: (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا) [٣٢] وأما الغفور فقد ورد كثيرا وقد اقترن بعدد من الأسماء الحسنى وأحياناً اقترن باسمه تعالى (الرحيم) أكثر من سبعين مرة من نحو قوله تعالى: (والله غفور رحيم) [٣٣] فيتضح مما تقدم أن اسمه تعالى (الغفور) أوسع استعمالا من (غافر) و(غفار) فقد ورد أكثر من تسعين مرة ليدل على كرمه سبحانه وتجاوزه وعفوه عن ذنوب عباده، ويشير من جانب آخر إلى أن لكل صيغة استعمالها الدقيق في سياق النص القرآني.

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك) هود / ١٢): (فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت لأن الرسول (ص) كان أفسح الناس صدراً،

ومثله قولك: زيد سعيد وجواد تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين فإذا أردت الحدوث قلت سائد وجائد[٣٤]

ويقول أيضا: إن (الفرق بين الميت والمائت أن الميت صفة لازمة كالسيد، وأما لمائت فصفة حادثة تقول (زيد مائت غداً) كما تقول (سائد غداً) أي (سيسود ،ويموت)، وإذا قلت (زيد ميت) فكما تقول حي في نقيضه فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت)[٣٥].

وقال في تفسير قوله تعالى: (الرحمن الرحيم): (في الرحمان من المبالغة ما ليس في الرحيم... ويقولون إن الزيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى) [٣٦]. قال السهيلي: (إن الرحمن من أبنية المبالغة كقضبان ونحوه وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية فإن التثنية في الحقيقة تضعيف ولذلك ذكرت هذه الصفة، فكان غضبان وسكران لضعفين من الغضب والسكر فكان اللفظ مضارعاً للفظ التثنية لأن التثنية ضعفان في الحقيقة) [٣٧] وكذلك وجد علماء اللغة أن صيغة الفعل تدل على معانٍ محددة من ذلك مثلاً: الفعل الماضي الثلاثي المجرد له ثلاثة أبنية هي (فَعَلَ، فَعِلَ، فَعُلَ) فذكروا أن ما جاء على وزن (فَعِلَ) تكثر فيه العلل والأحزان وأضدادها. مثل (سَقِمَ، ومَرِضَ، وبرئَ، وحزن، وفرح) وتجيء على هذا الوزن الألوان والعيوب والحلي جميعاً مثل (ادِمَ، وحمِق، ورَعِنَ). وما جاء على وزن (فعُلَ) يأتي لأفعال الطبائع ونحوها مثل حُسن وصَبُح وكبرُ وصَغرُ.

أما المزيد فقد ذكروا أن عدد أوزانه خمسة وعشرون وزناً، وأن معانيها غالباً ما تأتي في أبواب ثابتة، منها ما جاء للتعدية مثل أجلسته، ومنها للتعريض مثل أبعته، ومنها للصيرورة مثل أحصد الزرع وأغذ الجمل، وللتكثير مثل طوفت وحلقت، والمشاركة مثل صافحته،وبايعته، وضاربته ومعاني أخرى[٣٨].

وهكذا، فعِلَ: الموضوع للنعوت اللازمة مثل شنب وفلج وعمي وعَوِر وعرج والموضوع للأمراض مثل برئ ومرض ونشط وكسل وخرج وحزن وروي وعطش والموضوع للألوان مثل شهب ودعج ولهب.

ومن معاني فَعَل ما ورد للعطاء: مثل منح ووهب وشكر وللمنع: مثل حرم وحبس وسمن وحجز ومنها ما جاء للإيذاء. مثل لسع ولدغ وجرح وكطم. ويأتي للغلبة مثل قهر وهزم ودحر وطرد وصرع، ويأتي للتمويل: مثل قلب وحرف ونقل وجذب، أو للتحول: مثل رحل وذهب وظعن وسبح وخرج ودخل ووقف وهبط [٣٩].

وبناءً على مقاييس الصيغة والميزان الصرفي ميز علماء اللغة بين الفعل الذي يبنى للمجهول والفعل الذي لا يتم بناؤه على هذه الصورة. ومن الأفعال

التي لا يجوز بناؤها للمفعول باتفاق النحاة الأفعال الخاصة بالطباع مثل شَجُعَ الجندي، وكَرمَ العربي، والأفعال الدالة على الألوان والعيوب الخلفية والحلية مثل أحمر وأصفر وأعور وأحور، فضلاً عن الأفعال الجامدة مثل نعم وبئس وحبذا ولا حبذا وعسى وليس وتبارك وأفعال التعجب وفعل الأمر* وحصروا ذلك في الفعل الماضي والمضارع)[٤٠]. قال الثعالبي: (ما كان على (فَعلان) دل على الحركة والإضطراب كالغليان والضربان والهيجان وما كان على (فعْلان) دل على صفات تقع من أحوال كالعَطشان، والغرثان والشبعان والريان والغضبان، وما كان على (افْعَل) دل على صفات بالألوان نحو أبيض وأحمر، وأسود، وأصفر، وأخضر وكذلك العيوب تكون على (أفْعَل) نحو: أحول، وأعور، وأعرج، وتكون الأدواء على (فُعال) كالصُداع، والزكام، والسعال، والخناق. والأصوات أكثرها على هذا كالصراخ والثغاء والخوار، وفصل آخر منها على (فَعيل) كالضجيج والصهيل والزئير والهدير والنعيق والصرير، وحكايات الأصوات على (فعللة) كالصرصرة والقرقرة والغرغرة و القعقعة، وأطعمة العرب على (فعيلة) كالسخينة والعصيدة والوليمة والعقيقة وأكثر العادات في الاستكثار على (مفِعال) مثل مِطعان، ومطعام ومضياف، ومِضراب ومِكثار ومِهذار)[٤١]. ومن معاني الأبنية الأخرى.

٦. التعدية :

وهي واحدة من الأمثلة الكثيرة الدالة على دقة الأحكام اللغوية التي رصدها علماء اللغة لما لها من أثر كبير في تغير المعنى نتيجة تغير المبنى. وهي على ضربين:

فعل متعدٍ بغيره، وفعل متعدٍ بنفسه. فأما ما يتعدى بغيره فهو الفعل اللازم. ويتعدى بثلاثة أشياء. هي (الهمزة، والتضعيف، وحرف الجر) فالهمزة نحو: خرج زيدٌ، وأخرجته)، والتضعيف نحو (كرم الضيف، وأكرمّته)، وحرف الجر نحو (خرج زيد وخرجت به)، وكذلك (فرح زيد وفرحّته وفرحت به) وما أشبهه.

وأما المتعدي بنفسه: فعلى ثلاثة أضرب

ضرب يتعدى إلى مفعول واحد: مثل قولك ضرب زيدٌ بشراً، وأكرم عمرُ بشراً

ضرب يتعدى إلى مفعولين: مثل قولك: أعطيت زيداً درهماً وظننت زيداً قائماً

ضرب يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل: مثل قولك: أعلمت زيداً عمراً كريماً

إن كل واحد من هذه العوامل المعدية التي هي (الهمزة والتضعيف والجر) مثلما تنقل الفعل اللازم من للزوم إلى التعدي فكذلك إذا دخلت على

الفعل المتعدي تزيده مفعولاً، فإن كان يتعدى إلى مفعول واحد صار يتعدى إلى مفعولين مثل قولك حفر زيد بئراً وأن كان متعدياً إلى مفعولين صار متعدياً إلى ثلاثة مفاعيل[٤٢].

٧-أسماء الزمان والمكان والآلة :

وهكذا فيما يتعلق بأسماء الزمان والمكان التي وضعوا لها صيغاً محددة وكان الغرض من الإتيان بهذه الأبنية ضربا من الإيجاز والاختصار؛ وذلك لأنك تفيد منها مكان الفعل وزمانه ولولاها لزمك أن تأتي بالفعل ولفظ المكان والزمان، فـ(المسجد) مثلا يدل على الفعل (سجد) ومكان السجود وهكذا المهبط والمنهل، وغيرها ، فاشتقوا هذه الأسماء الدالة على الزمان والمكان من الفعل الثلاثي، ولا يكاد يكون ذلك من الرباعي، قال الزمخشري: (ما بني منها من الثلاثي المجرد على ضربين مفتوح العين ومكسورها كالمشرب والملبس والمذهب والمجلس والمبيت والمضيف. وأما ما بني من الثلاثي المزيد فيه والرباعي فعلى لفظ اسم المفعول كالمدُخل والمخرج والمدحرج. واما ما جاء على وزنَ (مفْعَلَه) مما لزمت فيه الهاء فهذا ليس اسماً للمكان الذي يقع فيه الفعل وإنما هي صفة الأرض التي يكثر فيها ذلك الشيء ولم يأت هذا الوزن من الرباعي كراهية ثقله عليهم مثل مقبرة) [٤٣]. واستعملوا لاسم الآلة ثلاثة أوزان هي (مِفْعَل ومِفعَلَة ومفعال) وذلك مثل منجل ومطرقة ومحراث)[٤٤].

٨-المبالغة :

ومن ذلك أوزان المبالغة: مثل (فعّال) نحو كذّاب وكفّار جاء في (كشف الطرة) أن الشيء إذا كرر فعله بني على فعّال) [٤٥] وفي الفروق اللغوية أنه إذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل فعّال مثل علاّم) [٤٦] وذكر صاحب (بغية الأمل في شرح الجمل) أن (فعال) لمن صار له صناعة)[٤٧] وجاء في المقتضب: (وذلك قولك لصاحب الثياب ثواب ولصاحب العطر عطار وإنما أصل هذا لتكرير الفعل كقولك هذا رجل ضراب ورجل قتال أي يكثر منه وكذلك خياط فلما كانت الصناعة كثيرة المعاناة للصنف فعلوا به ذلك وإن لم يكن منه فعل) [٤٨]

جاء في تفسير الرازي في قوله تعالى: (أنه كان غفاراً) [٤٩] (فكأن هذا هو حرفته وضاعته) [٥٠] وهذا البناء يقتضي المزاولة والتحديد لأن صاحب الصنعة مداوم على صنعته ملازم لها) [٥١]

٩-اسم الفاعل والصفة المشبهة:

وأما أسم الفاعل فإنه يدل على الحدث والحدوث وفاعله[٥٢] ويقصد بالحدث معنى المصدر وبالحدوث ما يقابل الثبوت فقائم مثلاً أسم فاعل يدل على القيام، وهو الحدث وعلى الحدوث أي التغيير، وإن (قائم) أثبت وأدوم من (قام) أو

(يقوم) ولكنه لا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبهة مثل طويل فإنه يمكن الانفكاك عن القيام إلى الجلوس ولكن لا يمكن الانفكاك عن الطول[٥٣]

من أوزان الصفة المشبهة (فَعْلان)، يدل هذا البناء على الامتلاء والخلو وحرارة الباطن كريان وعطشان. جاء في (كتاب سيبويه): (أما ما كان من الجوع والعطش فإنه أكثر ما يبنى من الأسماء على فعلان ويكون المصدر الفعل ويكون الفعل على (فعِل يفعَل) وذلك نحو ظمئ يظمأ ظمأ وهو ظمآن)[٥٤].وهذا الذي اوردناه يشير بوضوح الى عمق الدراسات اللغوية التي كشفت عن جوانب متنوعة من اسرار المفردة العربية .

المبحث الثاني: أصالة المفردة العربية:

ليس غريباً أن نلجأ إلى الواقع العربي نلتمس بين أرجائه الأواصر التي نراها كثيرة وقوية تربط المفردة العربية بالواقع العربي الذي صدرت عنه؛ لأن اللغة –وكما هو معروف –ظاهرة اجتماعية من الطراز الأول، والنشاط اللغوي يتوازى دائماً مع النشاط الاجتماعي. يقول ابن جني: (ت ٣٩٢ هـ): (اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)[٥٥] وهذا معناه الطابع القومي الذي يمايز طابع قوم آخرين، فلكل لغة نطقها وقانونها الخاص[٥٦]. وهذا القول أنما يؤيده الواقع الماثل ويقدم تفسيراً دقيقاً لاختلاف اللغات بين الأمم والشعوب. واللغة الأصلية هي تلك التي تكون نابعة من مسرح الحياة الذي يعيش عليه أبناؤها، تدفعهم إليها الحاجة، فيطلقون الأسماء، ويشتقون الأفعال والصفات، وتولد المفردة بين ظهرانيهم فتأخذ طريقها تداولاً وانتشاراً مثلما يولد أي فرد من أفرادهم فينشأ ويترعرع ثم يختلط مع أبناء قبيلته فيعرف المتكلم اللغة معرفة تامة لا لبس فيها ولا غموض ويستعملها استعمالاً دقيقاً ويتصرف بها تصرفاً واعياً ينم عن مهارة ويدل على معرفة شاملة بكل تفاصيلها ومكوناتها. وهذا ما نجده في لغتنا العربية التي انطلقت من صحراء الجزيرة وراح أبناؤها يضعون الأسماء على كل ما تقع عليه حواسهم، وهي في جملتها مأخوذة من تلك البيئة، نابعة من صميمها، فلا غرابة بعد هذا أن يعتز العربي بلغته ويعتني بها وتأخذه الحميّة عليها حين يستعملها من لا يحسن استعمالها أو يتصرف بألفاظها على النحو الذي لم تكن قد وضعت له.

هكذا نجدهم يعنفون من يخطئ، ويحاسبون من يلحن،ويعلمون من ينشأ. حرصاً منهم على سلامتها ودوام نقائها، فالعرب قديماً سموا السماء بصفة السمو والعلو، والسهل من الأرض لسهولة السير فيه، والبادية لصفة الظهور والوضوح، والمسكن لشعور المرء فيه بالسكينة، والسفر

لكشفه أفاق الكون أمام المسافر. وهكذا قال ابن الأعرابي: (الأسماء كلها لعلة، خصت العرب ما خصت منها، من العلل ما نعلمه ومنها ما نجهله)[٥٧]

وهذه الصلة بين الدال والمدلول قد تغمض أو تختفي على تقادم العهد ومرور الزمن حتى تجعلنا نجهل علة التسمية ومناسبة الوضع، وقد تبقى واضحة ظاهرة، أو قابلة للكشف بقليل من التأمل. مثل كلمة (الجار) وهو من يدخل في حماية القبيلة فيسكن في جوارها أي بالقرب منها، فيحمونه أذ هي من الفعل (أجار) إذا رفع عنه الجور وهو الظلم والتعدي. قال الزجاج: (الرحل من الرحيل، والثور لأنه يثير الأرض، والثوب لأنه ثابَ لباساً بعد أن كان غزلاً)[٥٨] وقال كذلك: (شجرت فلاناً بالرمح تأويله جعلته فيه كالغصن في الشجرة، وتشاجر القوم: اختلفوا كاختلاف أغصان الشجرة وكل ما تفرع من هذا الباب فاصلة الشجرة)[٥٩].

وقال الزبيدي (ت٣٧٩هـ) في (طبقات النحويين): (سئل أبو عمروبن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف، فمر أعرابي محرم فأراد السائل سؤال الأعرابي فقال له أبو عمرو: دعني فإني ألطف بسؤاله وأعرف، فسأله فقال الأعرابي: استفاد الاسم من السير... فقال أبو عمرو ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل والعجب، الا تراها تمشي العرضنة خيلاءً وتكبراً)[٦٠] من ذلك يتضح أن التسمية اللغوية في حقيقتها تصوير لبعض جوانب المسمى أو بعض صفاته أو أجزائه أو أبرز أعماله أو وظائفه. وهي، في كل الأحوال، مستمدة من البيئة العربية وما تضم بين إرجائها من المحسوسات.

الدقة في الاستعمال

وهذا مقياس آخر من مقاييس الألفاظ تمتاز به المفردة العربية، فاللفظ الدقيق هو الذي يؤدي المعنى المراد ولا يصلح غيره لأن يوضع موضعه، ولا ريب فإن الوقوع على اللفظ الدقيق الذي يصور ما في نفس المنشئ ويعبر عن أفكاره مهمة صعبة لا ينهض لها إلا من عرف اللغة معرفة واسعة، ووقف على ما بين الالفاظ من فروق دقيقة، قال ابن الأثير: (ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما في مواضع السبك وهذا ما لا يدركه إلا من دق فهمه وجل نظره)[٦١] والعرب يذهبون حين التسمية إلى أخص صفات المسمى وأبرزها أو إلى وظيفته أكثر من ذهابهم إلى مظاهر أخرى، ولقد تختار للشيء صفتين أو أكثر من صفاته فتجعل له اسمين أو أسماء باعتبار تلك الصفات، وتنشأ بسبب ذلك بعض الألفاظ المترادفة، ولكنهم

يستعملون كل لفظة منها في الموضع الذي يناسب تلك الصفة. ومن هنا كانت الصلة قوية بين مفردات اللغة وعقلية أصحابها وعاداتهم فالألفاظ العربية تدل على تفكير العرب ونظرتهم إلى الوجود.

ومن الباحثين من يقف عند عقلية العربي فيربط بينها وبين لغتهم فهو يرى: (أن العربي ذكي يظهر ذكاؤه في لغته فكثيرا ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة وهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة فيبهرك تفننه في القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى وان شئت فقل إن لسانه أمهر من عقله)[٦٢].

وعلى هذا فهو يختار اللفظة المناسبة عن وعي تام ليضعها في الموضع المناسب لتعطِ دلالة محددة لا لبس فيها أكثر من أية لفظة أخرى، وهذا إنما يدل على قدرته على التلاعب بالألفاظ عن علم تام ومعرفة شاملة فيقبلها على النحو الذي يريد على وفق نظام محكم لتدل دلالة جديدة.

والمفردات العربية التي حفلت بها المعاجم ومدونات اللغة على كثرتها وتنوعها، ودواوين الشعراء ومصنفات أهل الأدب على اختلاف طبقاتهم وعصورهم تدل على أن العرب صنفوا الوجود ورصدوا السلوك الإنساني وطبيعة الموجودات رصدا دقيقا منطقيا يدعو إلى الدهشة والتعجب، ويدل على مستوى فكري قلما وصلت إليه أمة من الأمم في مثل هذا الطور المبكر من تاريخ حياتها.

لقد امتازت العربية بقدرتها على تصوير الأشياء والموجودات في دقائقها والتمييز بين أنواعها وأحوالها والتعبير عن العواطف والمشاعر في مختلف درجاتها وألوانها والأمثلة على ذلك كثيرة، فالمشي عام، ولكنهم فرقوا بين أنواعه فقالوا: (درج للصبي الصغير، وحبا للرضيع، وحجل الغلام إن يرفع رجلا ويمشي على الأخرى، وخطر الشاب باهتزاز ونشاط، ودلف الشيخ رويدا بخطى متقاربة، وهدج مشى مثقلا، ورسف للمقيد، واختال وتبختر وتهاوى وتأود أنواع من المشي)[٦٣].

ونجد كذلك للأحاسيس والمشاعر ألفاظا كثيرة وتعابير دقيقة، فالحاجة إلى الطعام مراتب أولها الجوع، ثم السغب، ثم الفرث، ثم الطوى، ثم الخمصة، ثم الضرم، ثم السعار، وهكذا الحاجة إلى الماء أولها العطش ثم الظمأ ثم الصدى ثم الغلة ثم الادام. وللسرور مراتب منها الجذل، والابتهاج، والاستبشار والارتياح والفرح والمرح والغبطة والطرب[٦٤]. والامثلة على ذلك كثيرة والشواهد متعددة .

الترادف :

امتازت اللغة العربية بوفرة مفرداتها في المعنى الواحد، مع ملاحظة الفروق الدقيقة في الدلالة، وتفاوت في الإيماء والإيحاءات البعيدة، ولهم في ذلك مصنفات وأبحاث كثيرة تناولت هذا الموضوع وتوسعت فيه، إلا أنها تتفق جميعا على أن لكل مفردة معنى محددا، ولكل معنى مفردة تدل عليه على نحو دقيق، من ذلك مثلا كلمة (النظر) فإن دلالتها تختلف بحسب نوع النظر وطريقته وغايته، فإذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل (رمقه) وإذا كان النظر من جهة الأذن قيل (لحظه) وإذا نظر إليه بعجل قيل (لمحهُ) فإذا رماه ببصره مع حدة نظره قيل (خدجه) فإذا نظر إليه بحده وشدة قيل (أرشقه) فإذا نظر إليه بعين العداوة قيل (شزره) فإذا نظر إليه نظرة المتثبت قيل (توسمه) فإذا نظر في كتاب قيل (تصفحه) فإذا نظر وفتح عينيه بشدة قيل (حدّق) فإذا فتح عينيه وجعل لا يَطِرف قيل (شخص) فإذا أدام النظر إلى الارض وهو ساكت قيل (أطرق)[٦٥].

هذه الدقة في وضع الأسماء على المسميات وإطلاق الصفات على الموصوفات والتشدد في اللغة دليل على بلوغ أصحابها درجة عليا في دقة التفكير، واتصافهم بمزية الوضوح، وتحديد المقصود تحديدابما ينسجم مع المنطق العقلي، وهذه الدقة في استعمال الألفاظ هي إحدى وسائل تكوين التفكير العلمي وتحديد المفاهيم؛ إذ لا يمكن أن تكون اللغة البعيدة عن الدقة التي تتصف بالعموم والإبهام والغموض أداة للبحث عن الأفكار العلمية المركزة فلابد إذن من التقابل في الخصائص والصفات بين التعبير والتفكير.

يتضح من كل ما تقدم أن اللغة العربية اتسمت بسمات وخصائص جعلتها ترقى إلى هذه المنزلة الرفيعة والمكانة المرموقة بين اللغات، وأن كثيراً من هذه الصفات قد انفردت بها هذه اللغة الكريمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى لغة كتابه العظيم، وهذا إنما يدل على سموها ونضجها واكتمال ادواتها.

الصلة بين الألفاظ :

ألالفاظ العربية، كما تدلنا البحوث والدراسات التي قام بها العلماء والباحثون قديماً وحديثاً تقوم على حروف ثلاثة أصلية هي ملاك أمرها والعنصر الثابت فيها على اختلاف تقلباتها وتصرفاتها قال الخليل: (إن الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف حرف يبتدأ به وحرف تحشى به الكلمة وحرف يوقف عليه مثل سعد وعمر)[٦٦]. وما سوى الثلاثي وهي (الألفاظ المؤلفة من أربعة حروف أو أكثر) تتولد من هذه الثلاثة بالاشتقاق أو النحت. ويسمى أخذ الكلمة من المادة الأصلية اشتقاقا. ويسمي اللغويون الاشتقاق المبني على الاشتراك في ثلاثة حروف مرتبة ترتيباً ثابتاً من دون تبديل

في مواقعها بين الكلمة المشتقة والمادة الاصلية (الاشتقاق الصغير) وإذا أطلقوا كلمة الاشتقاق فإنما يريدون هذا النوع منه.

وإذا حاولنا تحليل عناصر المفردة العربية ومعرفة أسرار تراكيبها وخصائص تكوينها والبحث من وراء ذلك عن وجود صلات بين المجموعات الثلاثية تمكننا من رد هذه المجموعات إلى أخرى ثلاثية أوسع منها وأجمع تكون هي منها بمنزلة الفرع من الأصل. وقد أبدى عدد من اللغويين الأوائل مثل الخليل (ت ١٧٥هـ) وسيبويه (ت ١٨٠ هـ) وأبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) وابن جني (ت ٣٩٢ هـ) اهتماما كبيراً وسجلوا ملاحظات مهمة حول هذا الموضوع قامت عليها الدراسات والأبحاث؛ فقد مهد له نظام التقلبات الذي أبتكره الخليل وفتح به باباً جديداً من الدراسات يعتمد على قدرة المفردة العربية على التصرف والاشتقاق الذي يعد سمة بارزة من سمات العربية التي اتصفت بوجوده بالقدرة على التوسع والشمول والإحاطة بأنواع المعاني، ومكنها ذلك من مواكبة تطور الحياة واستيعاب فنون القول وتشعبات التعابير وملابساتها، فمنحها ذلك قدرة هائلة على التواصل والاستمرار والتفاعل والخلود، فكانت وما تزال مثاراً للإعجاب. ويعد الاشتقاق من أغزر الموضوعات مادة وأكثرها عناية واهتماماً لدى المعنيين في ميدان البحث اللغوي؛ لأنه يمثل المنهل العذب والصيغة القياسية التي تغذي اللغة، وتمدها بالمفردات التي لا يجد المتكلم لولاه إليها سبيلاً أمناً ودقيقاً. ومن هنا حظي بعناية الدارسين من العلماء والباحثين قدامى ومحدثين، ويأتي ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) في مقدمة الرعيل الأول من العلماء العرب الذين برعوا في هذا المضمار؛ فقد كان أكثرهم تدبراً وتوسعاً وعمقاً وأوضحهم بحثاً. فهو يرى أن الاشتقاق على ضربين عندما قال: (إن الاشتقاق عندي على ضربين كبير وصغير) [٦٧] فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتتقراه فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه وذلك مثل ترتيب (س، ل، م) فأنت تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو: سلم، ويسلم، سالم، وسلمان، وسلمى، والسلامة، والسليم اللديغ أطلق عليه تفاؤلاً بالسلامة) [٦٨].

ولو تأملنا هذه الصيغ التي ذكرها ابن جني لوجدناها تلتقي عند الأصل الواحد، وتشير إلى دلالات مختلفة ومعانٍ متنوعة تبعاً لتغير البناء الصرفي وتعدد صورة وأحواله. وهكذا لو أخذنا مفردة أخرى مثل (أطلق، ينطلق، أنطلق، أنطلِقْ، يطلق، مطلق، منطلق، انطلاقا، طليق) وغير ذلك من الاشتقاقات الأخرى التي تتوالى من

الأصل (ط، ل، ق) فإن كل مفردة من هذه المفردات تشير إلى معنى جديد يتنوع بتنوع هذه الصيغ، لا يتجلى في المفردة الأصل. وإنما راحت المعاني تتوارد بتوارد الصيغ وتعدد المباني، وأن كانت تحتفظ بما يعود بها إلى أصلها، ويجمعها بالمفردة التي اشتقت منها، وتتضح فائدة الاشتقاق أكثر عندما تدخل المفردة في سياق الكلام. فقولنا زيد ضارب تختلف عن زيد مضروب من حيث الدلالة التي أظهرها تعدد الصيغ من المادة (ض، ر، ب) وهكذا (زيد ظالم) تختلف عن (زيد مظلوم) فعند النظر إلى الثابت الذي هو (زيد) في هذه التراكيب نجده قد اختلفت صيغته، وتنوعت أحواله باختلاف صيغة المتغير الذي هو (ظالم، مظلوم، ضارب، مضروب) وهذا الانقلاب الذي نراه والتحول الذي دلت عليه معاني التراكيب إنما حدث بفعل الاشتقاق الذي اتسمت به المفردة.

أما الاشتقاق الأكبر فإنه سمة أخرى من سماه الصلة بين الألفاظ العربية، وأول من أشار إليه ونسبه ابن جني، وإن كان قد استمد جذوره من نظام التقليبات الذي ابتدعه الخليل، وركن إليه أبو علي الفارسي، إلا أن ابن جني يعد رائد هذا اللون من الاشتقاق؛ فلم يؤثر عند غيره ممن تقدمه من علماء العربية هذا التوسع والشمول والتنظير والتطبيق كما نجده عند ابن جني، فقد ذكره في قوله: (وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد بشيء من ذلك عنه ورد بلطف الصنعة والتأويل إليه كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد) [٦٩]. وراح يسوق الأمثلة ويقدم الأدلة ليوضح ما ذهب إليه فيرى أن (ك، ل، م) (ك، م، ل) (م، ك، ل) (م، ل، ك) (ل، ك، م) (ل، م، ك) وهذه التقاليب الستة على اختلافها تعود إلى معنى واحد هو (القوة والشدة) وإن اختلفت صورها وتعدد بناؤها. وكذلك (ق و، ل) (ق، ل، و) (و، ل، ق) (ل، ق، و) (ل، و، ق) فإن هذه التقاليب الستة تعود إلى معنى (الإسراع والخفة). ومن ذلك (ج، ر، ب) فهي أين وقعت تدل على (القوة والشدة) منها (جبرت العظم، والفقير إذا قويتهما وشددتهما، وأبجر: الملك لقوته وتقويته لغيره، ومنها رجل مجرب إذا أجرسته الأمور ونجدته فقويت منته، واشتدت شكيمته، ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه وإذا حفظ الشيء وروعي أشتد وقوي واذا أغفل وأهمل تساقط ورذي... ومنه البرج لقوته في نفسه وقوة ما يليه به، ومنها رجيت الرجل وقويت أمره ومنها رجب لتعظيمهم إياه عن القتال فيه. ومن ثم ذكر تراكيب أخرى منها: (ق، س، و) فإنه يرى أنها

بتقليباتها الستة تدل على معنى القوة والاجتماع؛ فمنها القسوة وهي شدة القلب واجتماعه، والقوس لشدتها واجتماع طرفيها وهكذا في معاني التراكيب الأخرى[٧٠]. ولم يقف عند هذا الحد وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك يتأمل المفردة في محاولة منه لكشف جوانب أخرى من أسرارها؛ فقد بسط ما لاحظه من صلاة بين الألفاظ المشتركة في حرفين أو في حرف واحد مع التشابه في الحروف الأخرى مثل (أز، هز) و (حرف، حلف، جنف) و(فصِم، فصم) و(قطع، قطم) و(سد، صد) وغيرها من الأمثلة التي أوردها في أبواب متفرقة من كتاب الخصائص، وتابعة المحدثون مثل جرجي زيدان والكرملي والعلايلي، وانتهوا إلى أراء متقاربة في أصل الألفاظ العربية وتاريخ نشوئها وتكوينها.

من ذلك وغيره تتجلى لنا فائدة الاشتقاق الذي بعد من أكبر مصادر اللغة يمدها بما هو جديد ويمنحها العمق والشمول والقدرة على التواصل والتحول والبقاء.

القيمة التعبيرية للحرف :

من الممكن أن نعد مباحث ابن جني ورأيه في المقابلة بين الخاصية الصوتية للحروف التي تتألف منها المفردات ودلالتها تشير إلى وظيفة الحرف المعنوية وإن كان ابن جني لم يحدد من مباحثه وشواهده هذه النتيجة الصريحة الواضحة، لكنه أشار إليها عندما قال: (ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر والحكمة أعلى وأنصع، وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها وترتيبها وتقديم ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوسطه سوقاً للحرف على سمت المعنى المقصود، والغرض المطلوب)[٧١] ويتشهد على ذلك بلفظة (بحث) (فالباء) لغلظها تشبه خفقة الكف على الأرض و(الحاء) لعلمها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض و(الثاء) للنفث والنبش للتراب.

ومن ذلك قولهم (شد) الحبل ونحوه فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ثم يليه إحكام الشد والجذب وتأديب العقد فيعبر عنه (بالدال) التي هي أقوى لنصاعتها وأدل على المعنى الذي أريد بها.

ومن ذلك (جر) الشيء يجره، قدموا (الجيم) لأنها حرف شديد وأول الجر بمشقة على الجار والمجرور جميعاً ثم عقبوا ذلك (بالراء) وهو حرف مكرر وكررها مع ذكرها في نفسها وذلك أن الشيء، إذا جر على الأرض في غالب الأمر، اهتز عليها وأضطرب صاعداً عليها نازلاً إليها،

وتكرر ذلك منه على ما فيه من العتعتة والقلق فكانت (الراء) لما فيها من التكرير ولأنها قد كررت في نفسها في (جرَّ) أوقف لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها)[٧٢] وهو يرى أن هذه الظاهرة شائعة منتشرة في الألفاظ العربية وبابها واسع عظيم، وهي أكثر مما نقدره وأضعاف ما نشعره) [٧٣] من ذلك مثلاً حرف (الغين) فإنه يدل على الاستتار والغيبة والخفاء كما في: غاب، غاص، غال، غام، غمر، غمض، غرب، غرس، غرف، غبن، غطى، وهكذا (النون) يدل على البروز والظهور مثل (نجم، نهض، نبش... الخ) وحرف (القاف) يدل على الاصطدام أو الانفصال. وتقترن بحدوث صوت شديد تصوره القاف في شدتها مثل (قد، قطع، قرع، طرق، عقر وغيرها)[٧٤].

ومما ذكره علماء العربية من دلالة الحروف على بعض المعاني عند دخولها في بناء المفردة فإن (التاء) إذا جاء ثاني الكلمة دل على القطع: مثل: بتر وبت الحبل. و(الدال) إذا جاء ثاني الكلمة دل على التفريق مثل: بدد المال، وصدع الجدار، وودع الأهل. و(الحاء): إذا جاء آخر الكلمة دل على التفرق والظهور والامتداد مثل باح بالسر، ولاح القمر، وصاح الرجل، وفاح العطر، وساح الماء، وزاح الهم، وراح الضيف. و(الراء) إذا جاء آخر الكلمة دل على الاستمرار، مثل، فرّ، مرّ سرّ، جرّ، حفر، حضر، نظر، نشر. و(الشين): إذا جاء أول الكلمة دل على التفريق مثل، شتت شملهم، شطر صفهم، شاع الخير. و(القاف): إذا جاء في أول الكلمة يدل على الحركة مثل: قصف، قطع، قتل، قام، قعد، قال، قنص. و(الفاء): إذا جاء أول الكلمة يدل على الانتهاء. مثل فسد، فشل، فرش، فتح، فتر، فرس، فغر. و(النون): إذا جاء في أول الكلام يدل على التفريق مثل نثر الماء، ونشر الخبز ونقل الحجر، ونبش القبر.

وهكذا لو تأملنا الحروف الأخرى وبحثنا عن دلالتها عندما تكون في أول المفردة أو ثانيها فإنها غالباً ما تشترك في الدلالة لوجود الحرف المشترك. فهل لنا أن نستنتج من هذه الأمثلة وأشباهها أن للحرف الواحد في تركيب الكلمة العربية قيمة تعبيرية؟ وأن الكلمة الثلاثية تعبر عن معنى هو ملتقى حروفها الثلاثة، ونتيجة تمازجها وتداخلها كأن تقول مثلاً (غرق) يحصل معناها من اتحاد معاني حروفها (فالغين) تدل على غيبة الجسم واختفائه في الماء. و(الراء) يدل على التكرار واستمرار الحركة والانغماس. (والقاف) يدل على اصطدام الجسم في قعر النهر، والمعنى الإجمالي الحاصل من اندماج هذه المعاني الجزئية للحروف هو مفهوم مادة (غرق) وهكذا كلمة (درس) فإن (الدال) إذا جاء

في أول الكلمة يدل على الحركة بصعوبة مع الاستمرار مثل: دار، دفع، درج، دمّر، داهم، دائرة. والراء يدل على تكرار الحركة مثل ركض، حفر، نظر، أمر. السين: تدل على الاستمرار: سافر، سحب، سجن، لبس، حرس، سجد، سَعُد، جلس خسر. ومن هنا فإن لفظة (درس) تدل على هذه المعاني مجتمعة وهي حركة وعمل بصعوبة وتكرار واستمرارية وهذا ما ينطبق على مفردة الدراسة بمفهومها الحالي.

وهكذا ومع تأمل الحروف والمفردات سوف نجد أن الكلمات العربية غالباً ما تكون من تكامل معاني حروفها واندماجها في معنى واحد. وهذا أنما يدل على أن الحرف العربي يحمل في طياته معنى يحتفظ به وتظهر دلالته نفسها عندما يدخل في تركيب المفردة، ولكنه أحياناً يختلف باختلاف موقعة من المفردة إن كان أولاً أو وسطاً أو آخرا. وهذا إنما يعطي اللغة مزيداً من الأصالة والسعة والشمول. ومن هنا فإن هذه الظاهرة التي امتازت بها المفردة العربية تبهر العقول وتلفت الأنظار وهي تكشف عن تقابل المعاني والأصوات في تراكيب الألفاظ وأثر الحرف في بيان المعنى وارتباط المفردات.

انتقاء الألفاظ: امتازت المفردة العربية المستحسنة بائتلاف الجرس ويسر اللفظ وصفاء الرونق وسهولة الأداء. ومن أجل ذلك هجر أهل اللغة من المتذوقين لألفاظها وأهل العلم والدراسة في أساليب الكلام كل لفظ خشن، وابتعدوا عن كل ما يؤذي حركات الصوت وتردد النفس وسمع المتلقي ورهافة أحاسيسه وسلامة ذوقه ورقة مشاعرِه. ونقرأ في البيان والتبين للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) أقولاً كثيرة تدعو إلى الابتعاد عن الوحشي من الكلام من ذلك قول بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) في صحيفته مخاطباً الأديب وموجهاً الكاتب (وإياك والتوعر فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك) [٧٥].

وعرض القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢) للموضوع نفسه فذكر أن العربية لغة صحراوية حافلة بمادة كبيرة تتعلق بالصحراء، وتعبر عما فيها من ضروب الحياة وأن تلك المادة لم تخل من ألفاظ كثيرة اتسمت بالثقل. وحين هجر الناس الصحراء نزعوا إلى الحواضر أقاموا فيها اختاروا من المادة اللغوية ألينها وأسهلها (فعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعاً وألطفها من القلب موقعاً... وإلى ما للعرب فيه لغات... فاقتصروا على أسهلها وأشرفها، كما رأيتهم يختصرون لفظ (الطويل) فإنهم وجدوا للعرب فيه نحوا من ستين لفظه أكثرها بشع شنع، تركوها

واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان وقلة نبو السمع عنه)[٧٦].

وهذا إنما يشير إلى أي مدى كان العرب يميلون إلى تهذيب الألفاظ وتشذيبها ويعمدون إلى حسن الصياغة وجمال التركيب. (ولقد قسم علماء العربية الألفاظ إلى خمسة ضروب هي الوحشي، السوقي، والجزل، والسهل، والرقيق) [٧٧] قال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) (وأجود الكلام ما كان جزلاً سهلاً لا ينغلق معناه ولا يستبهم مغزاه)[٧٨] ولقد أشار الجاحظ قبل هؤلاء إلى صفة الألفاظ وحدد المنزلة التي يجب أن تكون عليها ولا تخرج عن دائرتها عندما قال: (كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون وحشياً إلا أن يكون المتكلم به بدوياً أعرابيا فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي)[٧٩] وأشترط ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) الجزالة والعذوبة في اللفظ المستحسن فقال: (ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع)[٨٠]. وذهب إلى أن لكل صنف من الألفاظ بنوعيها الجزل والرقيق مواضع يستحسن استعمالها فيه فقال: (الجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وقوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد واستجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأمثال ذلك)[٨١].

وفي جملة هذه الأقوال إشارات واضحة إلى أن اللفظ الجيد هو الذي ارتفع عن لغة العامة، وابتعد عن الوحشي من الكلام، ولا يتحقق له ذلك إلا إذا توفرت فيه صفتان هما: الجزالة والسهولة؛ فقد كان العرب يميلون إلى هذا الصنف من الألفاظ، وعدوه المطمع المؤيس والقريب البعيد أو السهل الممتنع الذي يصعب على غير المطبوعين، وينأى عن المتكلفين فهو يمثل منزلة وسطى بحيث ترضى عنه العامة وتفهمه وتقبله الخاصة وتعجب به وتستعذبه.

المبحث الثالث: المفردة في الاستعمال القرآني:

من خلال اطلاعنا على هذه النماذج من الإحصائيات الدقيقة والدراسات العميقة التي تناول فيها علماء العربية اللفظة المفردة من حيث الصيغة والعمل والاشتقاق. فإن ذلك يدل على مدى عنايتهم بالمفردة لأنها المحور الذي تقوم عليه دراسة اللغة تركيباً ومعنى، فتمكنوا بالاعتماد على هذه الدراسات من النظر في النصوص وتحليل الصياغة للوقوف على مواطن الجودة فيها، وتحديد أسباب الضعف والخلل إن وجد، وتوجيه الكاتب والمتلقي ليرتقي كل منهم بذوقه ويهتدي إلى جمالية اللغة من خلال أحاطته

بمعرفة مواصفات المفردة التي عليه أن يضعها في مكانها الملائم لتناسب المعنى وتشير إلى الدلالة المطلوبة. والقرآن الكريم هو النص المحكم والكلام المعجز الذي بهر العقول وتحدى أهل العلوم أن يأتوا بسورة من مثله؛ لما أتصفت به تراكيبه وبناؤه العام من دقة وإحكام، وعلوم وأخبار على مدار الكون وامتداد الزمن شملت العالم المحسوس وغير المحسوس. ومن بين ما اتصف به أسلوب القرآن العظيم الدقة في اختيار الألفاظ وانتقاء الكلمات، فإذا أختار الاسم معرفةً كان ذلك لسبب، وإذا انتقاه نكرة كان ذلك لغرض، وقد يختار الكلمة ويهمل مرادفتها التي تشترك معها في بعض الدلالة. اصطفى القرآن الكريم هذه اللغة، واختار من مفردتها أكثرها أصالة وأقواها دلالة وأدقها تعبيراً وأحلاها نغماً، وأورد كل لفظة في مكانها المناسب ببراعة فائقة وطريقة محكمة جعل الخلائق تقف أمامها مبهورة وعن الإتيان بمثلها عاجزة.

ولقد أشار الجاحظ إلى أن بعض الناس يستعملون مفردة في موضع من الكلام وغيرها أحق منها بالاستعمال في ذلك الموضع مستشهدا بما ورد في النص القرآني الذي استعمل المفردة في مكانها الملائم. فقال. (ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن (الجوع) إلا في موضع العقاب أوفي موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون (السغب) ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة وكذلك ذكر (المطر) فلا نجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر. وذكر الغيث وإذا ذكر (الأبصار) لم يقل (الأسماع) وإذا ذكر (سبع سماوات) لم يقل الأرضيين. ألا تراه لا يجمع (الأرض) على (أرضين) ولا (السمع) على (أسماع) والجاري على أفواه العامة غير ذلك لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال[٨٢]. وفي الكلام العربي ألفاظ يحسبها أكثر الناس متساوية في بيان المراد مثل (الحمد والشكر) و(الخوف والخشية) و(الفقير والمسكين) وغير ذلك ولكن هذا التصور يزول عند إجالة الفكر والتأمل في دلالة هذه الألفاظ، وكيف ورد استعمالها بدقة متناهية في القول الحكيم، فلكل لفظه خصوصية ومزية عن اللفظة التي تقاربها في بعض المعنى أو تشترك معها في بعض الدلالة. نذكر من ذلك مثلاً: (جاء، وأتى): فالفعل جاء: يقال في الحديث عن الجواهر والأعيان. والفعل أتى: يكون في الحديث عن المعاني والأزمان ولهذا ورد (جاء) في قوله تعالى في قصة يوسف (ع) (قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير)[٨٣].

وكذلك قوله تعالى في السورة نفسها (وجاءوا على قميصه بدم كذب)[٨٤]، وقوله تعالى: (وجيء يومئذ بجهنم)[٨٥]. وجاء الفعل (أتى) في قوله تعالى في شأن يوم القيامة (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)[٨٦]. وقوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً)[٨٧]. وهكذا فرق القرآن الكريم بين الفعلين (جاء وأتى) في قوله تعالى (قالوا بل جئتنا بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون)[٨٨] لأن الفعل الأول (جاء) يراد منه العذاب وهو مشاهد مرئي واقع بخلاف الحق فهو معنى من المعاني العقلية. وهكذا الفعل (مدّ، وأمدَّ) قال الراغب أكثر ما جاء لفظ الإمداد في المحبوب نحو (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون)[٨٩] ولفظ (المدّ) يجيء في المكروه مثل قوله تعالى (ونمدّ له من العذاب مدا) [٩٠].

وكذلك الفعلان (قَعَد، وجَلَسَ) فإن القعود يستعمل في كل ما يكون فيه لبث ومكث بخلاف الجلوس، ولهذا يقال: (قواعد البيت) ولا يقال (جوالسه) للزومها البيت ومكثها فيه، ويقال: جليس الملك ولا يقال (قعيده) لأن مجالس الملوك يستحب فيها الترويح وخفة الظل وعلى هذا جاء قوله تعالى: (أن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر)[٩١] فجاء التعبير (مقعد صدق) للإشارة إلى أنه لا زوال له بخلاف قوله تعالى (يا أيها الذين أمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فأفسحوا يفسح الله لكم)[٩٢] فذكر هنا لفظة (المجالس) لأن هذا المجلس يجلس فيه مدة قليلة وزمان يسير[٩٣] وجاء في تفسير قوله تعالى (مقعد صدق) فلقد جاء بالصيغة الدالة على الثبوت فقال في (مقعد صدق) وكل المقاعد الأخرى كاذبة لأنها تزول إما بزوال الملك أو صاحبه. وهذا المقعد وحده الذي لا يزول) [٩٤] ذلك لأنه عند مليك مقتدر.

وفي هذا الباب يحكى عن النظر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمة مدينة (مرو)، فمثل بين يديه، وسلم فقال له المأمون: (أجلس) فقال يا أمير المؤمنين ما أنا بمضطجع فأجلس. قال فكيف تقول: قال: قل (أقعد) فأمر له بجائزة[٩٥]. وقد فرق الخليل بن أحمد بين (القعود والجلوس) فقال: لمن كان قائماً (أقعد) ولمن كان نائماً أو ساجداً (أجلس) لأن القعود: هو الانتقال من علو إلى أسفل ولهذا قيل لمن اصيب في رجله (مقعد) وأن (الجلوس): هو الانتقال من أسفل إلى علو) [٩٦] وهكذا أكل وافترس وانفجرت وانبجست لكل منها معنى معين واستعمال خاص في رحاب النص القرآني.

ومما يدل على أعجاب العرب بلغة القرآن وتأثرهم واعتزازهم بها أخذت بعض القبائل تفتخر بما في

الفاظها من شبه لألفاظ القرآن الكريم، فهذا الجاحظ يحدثنا أن أهل مكة قالوا لمحمد بن مناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن مناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للغة القرآن وأكثرها له موافقة فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمون (القدر برمة) وتجمعون البرمة على (برام) ونحن نقول (قدر) ونجمعها على قدور. وقال الله عز وجل (وجفانٍ كالجوار وقدورِ راسيات)[٩٧]. وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت (عُلِّيه) وتجمعون هذا الاسم علي (علالي)، ونحن نسميه (غُرفة) ونجمعها على (غرفات، وغرف) وقال الله تبارك وتعالى: (غرف من فوقهم غرف مبنية) [٩٨] وقال سبحانه (وهم في الغرفات آمنون)[٩٩] وأنتم تسمون (الطلع) (الكافور) و(الأغريض) ونحن نسميه (الطلع) وقال الله تبارك وتعالى (ونخل طلعها هظيم)[١٠٠] يقول الجاحظ فعدد عشر كلمات لم أحفظ منها إلا هذه)[١٠١] وقد كانت كلمة (راعنا) يقولها اليهود للنبي (ص) على سبيل التهكم ويقصدون منها وصفة (بالرعونة) ويوهمون أنهم يقصدون بها ترفق بنا وأنظرنا. وتجنباً لهذا اللبس في التعبير نهى القرآن الكريم المؤمنين عن مخاطبة الرسول (ص) بها، وأمرهم أن يبتعدوا عن هذا اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعة، وأن يستبدلوا به مرادفه في المعنى الذي لا يستطيع السفهاء تحريفه وأمالته فقال سبحانه (يا أيها الذين أمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا أنظرنا وأسمعوا)[١٠٢] وهذ خطاب صريح يدل على أن القرآن الكريم إنما كان يدعو إلى اختيار المفردة التي تدل على المعنى من غير لبس ولا غموض.

ومن ذلك ما جاء على صيغة (مفعل) في القرآن الكريم ، فقد وردت ثلاثة ألفاظ على هذه الصيغة في ثنايا النص القرآني وهي مشتقة جميعاً من الفعل (افعل) الدالة على اللون وهي (مخضرة، ومسودة، ومصفرة) وقد بلغ مجموع المواضع التي ذكرت فيها هذه الألفاظ سبعة مواضع[١٠٣].

ولو تأملنا الآيات القرآنية التي انتظمت فيها هذه الألفاظ لوجدنا أنها جاءت موافقة لدلالة (اسم الفاعل) الذي يدل على الذات المتصفة بالمعنى على جهة الحدوث، أي انها تدل على الوصف اللوني الحادث وبما ينسجم والسياق القرآني لتلك الآيات، فمن ذلك:

لفظة (مخضرة): فقد وردت هذه اللفظة مرة واحدة في النص القرآني وذلك في قوله تعالى (أم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير)[١٠٤] وهذه الآية واحدة من آيات الطبيعة التي تجلت فيها قدرة الله سبحانه،

وهي في مجموع ألفاظها وتراكيبها تدل على أمر يحدث ويتجدد، فالأرض الجرداء تصبح بعد نزول المطر عليها معشبة ذات خضرة ونبات أي ان خضرة الأرض حادثة مقترنة بنزول المطر ووجود الماء، وقد جاءت لفظة (مخضرة) بصيغة اسم الفاعل متسقة مع لفظة (تصبح) بصيغة المضارع لتعبر في تصوير تبديع عن حدوث تلك الخضرة، قال الزمخشري في معرض بيان علة اختيار الإصباح بصيغة المضارع من دون الماضي: (فإن قلت هلا قيل أصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع. قلت لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كم تقول: انعم على فلان عام كذا فأروح وأغدوا شاكراً له ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع) [١٠٥] وفي ذلك إشارة إلى أن الفعل المضارع بدلالته على الحدوث والتجدد قد أفاد في هذه الآية المباركة معنى حدوث (الإخضرار) في أزمنة مختلفة بعد نزول المطر وليس في زمن واحد وهو الماضي المنقطع كما لو قيل (أصبحت) وبما أوحت صيغة المضارع الدالة على الحال والاستقبال بأن ما يحصل للأرض من خضرة إنما هو بعد زمن من نزول المطر قد يطول أو قد لا يحدث ذلك مباشرة بعد نزوله كما توحي بذلك لفظة الماضي (أصبحت) ولو تساءلنا عن علة مجيء خبر الفعل الناقص (تصبح) الدال على الحدوث على صيغة الوصف الدال على الحدوث كذلك، أو بعبارة أخرى لماذا عدل إلى لفظ اسم الفاعل (مخضرة) ولم يقل (خضراء)؟

الإجابة على هذا التساؤل تدعونا إلى الوقوف على الفرق بين لفظتي (خضراء) و(مخضرة) وذلك إنما يكمن في الفرق الأساس بين صيغة (اسم الفاعل) وصيغة (الصفة المشبهة) فاسم الفاعل يدل على الحدوث والتجدد، والصفة المشبهة تدل على الثبوت، ولما كان ما يحصل للأرض من تغيير بأثر نزول المطر غير مقيد بزمن، وإنما يحصل في أزمنة مختلفة على ما ذكره الزمخشري في قوله المتقدم كان من المناسب أن يأتي الخبر على صيغة تدل على حال تلك الأرض في كل زمان من تلك الأزمنة، وهو اكتساب الأرض الخضرة بعد أن كانت غير مخضرة قبل نزول المطر. يقول الطاهر بن عاشور:(وإنما غير من مصير الأرض خضراء بصيغة تصبح (مخضرة) مع أن ذلك مفرع عن فعل (أنزل من السماء ماءً) الذي هو بصيغة الماضي لأنه قصد من المضارع استحضار تلك الصورة العجيبة)[١٠٦]. ثم ان لفظة (مخضرة) تدل على ان ما يحصل للأرض من خضرة أنما هو على جهة التدرج والاكتساب لا على جهة المباشرة، وهذا ينسجم ومراحل نمو النبات الذي يتحصل منه منظر اللون الأخضر، وذلك بخلاف

ما لو جاء بالخبر على صيغة (فعلاء) (خضراء) التي تدل على أن اللون الأخضر ثابت فيها مستقر لا أنه قد تحولت إليه الأرض بفعل نزول المطر وحصل على مراحل.

ولو تأملنا الاستعمال القرآني لمفردة اللون على صيغة الصفة المشبهة (فعلاء) لأفصح لنا الفرق بين هذه الصيغة وصيغة اسم الفاعل (مفعل) ولتبين لنا العلة التي من أجلها وردت على صيغة اسم الفاعل (مخضرة) في هذه الآية ولم ترد على صيغة الصفة المشبهة (خضراء)، فلقد جاءت هذه المفردة على صيغة (فعلاء) في لفظتين وهما (صفراء) و (بيضاء) ولم ترد في غير هذا البناء دالة على اللون، وعند إمعان النظر في السياقات القرآنية التي ورد فيها ذكر هاتين اللفظتين نجد أن السياق القرآني في إيراده لصيغة (فعلاء) دون غيرها إنما كان يتوخى اللون لا غير. وكان اللون هو الدلالة المركزية لهاتين اللفظتين عند استعماله صيغة (فعلاء) إذ رودت لفظة (صفراء) مرة واحدة في القرآن الكريم لبيان لون البقرة التي أمر موسى عليه السلام قومه أن يذبحوها بأمر من الله سبحانه وذلك في قوله تعالى: (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول أنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين)[١٠٧] واللون من الصفات الثابتة في الحيوانات ثم ورد التأكيد بقوله (فاقع لونها) فذكر اللون لإزالة الشك والاشتباه بغيره من الألوان والأبقار الأخرى.

وأما لفظة (بيضاء) فقد رودت في القرآن الكريم في سياقين مختلفين ولكنهما يدلان على اللون كذلك.

فأما السياق الأول الذي وردت فيه كلمة (بيضاء) فقد كان في صفة خمر الجنة قال تعالى: (أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين)[١٠٨] فبيضاء هنا صفة للكأس والمراد بها الخمر والمعنى بها أي الكأس في الآية الخمر لأنه أفرد الكأس مع أن المطوف عليهم كثيرون ولأنها وصفت بأنها معين، وبيضاء صفة للكأس وإذ قد أريد بالكأس الخمر الذي فيها كان وصف بيضاء للخمر) [١٠٩] وذكر اللون هنا إنما جاء للترغيب بها وبيان أفضليتها على خمر الدنيا.

أما السياق الثاني الذي رودت فيه لفظة (بيضاء) في الأكثر في القرآن الكريم لهذه اللفظة فكان بيان معجزة من معجزات النبي موسى عليه السلام التي جاء بها قومه وتحدى بها فرعون وتتمثل تلك المعجزة بتحويل لون يد موسى عليه السلام من اللون الشديد السمرة إلى لون أبيض نوراني مشع) [١١٠] قال تعالى: (واضمم يدك إلى

جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى) [١١١] وكان هذا التحول أو التغيير قد شمل اليد والعصى التي تحولت إلى حية تسعى ثم عادت سيرتها الأولى وكذلك اليد فإنها تعود في كل مرة إلى لونها المألوف.

ولما كان السياق في هذه المعجزة قائم على التحول فإن السياق القرآني لم يعبر عنه بصيغة اسم الفاعل (مفعل) فيقول: (مبيضة) وإنما عبر عنه بصيغة الصفة المشبهة (فعلاء) فقال (بيضاء) كما هو الحال في السياقات الأخرى التي ورد فيها ذكر هذه المعجزة الإلهية اللونية، وذلك لأن تغيير اللون قد حصل فجأة وليس فيه تدرج وتجدد وحدوث كما هو الحال في قوله (مخضرة) التي وردت.

والعلة في ذلك تكمن في أن موضع الاعجاز قائم على اللون فاهتمام السياق جاء منصبا على النتيجة المتحصلة من ذلك التحول الشامل والسريع المفاجئ.

فاللون الذي تحولت إليه كان عجيباً قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: (ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) [١١٢] فإن قلت: بم يتعلق { للناظرين}؟ قلت: يتعلق ببيضاء. والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلاّ إذا كان بياضا عجيباً خارجاً عن العادة، يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ما يروى: أنه أرى فرعون يده وقال: ما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة) [١١٣].

ومن هنا فإن القرآن الكريم قد استعمل المفردة اللونية على صيغة الصفة المشبهة (فعلاء) عندما أراد منها الدلالة على اللون الثابت الذي لا يتوقع زواله وتحوله إلا في ميدان الاعجاز الإلهي كما في لون البقرة الصفراء ذات اللون الفاقع شديد الاصفرار واليد البيضاء ذات اللون الأبيض المشع الذي لا يماثله لون من ألوان البشرة المعهودة في طبيعة البشر حتى ليظن الناظر أن هذا اللون من القوة والثبوت لا يزول ولا يتغير وهو كذلك إلا بفعل إلهي.

وأما عندما يدل اللون على التجدد والتحول الطبيعي المعهود عند الناس فإنما استعمل لذلك صيغة اسم الفاعل فقال عن تحول لون الأرض (مخضرة) للدلالة على كثافة اللون وتدرجه شيئا فشيئا فجاء على صيغة اسم الفاعل (مفعل).

وهكذا لفظة (مصفر) التي وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات وقد جاءت في المرات الثلاثة في سياق حادثة واحدة وهو تحول لون النبات الأخضر إلى اللون الأصفر فقد ورد ذكرها في معرض الحديث عن موت النبات بعد أن أصابه

الإعصار قال تعالى: (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون) [١١٤] أي رأوا تغير لون ذلك الزرع الأخضر الذي استبشروا به خيراً وتأملوا منه النفع قريبا بتغير ويصفر لونه ويحترق، وقد أشار سبحانه إلى حصول التغيير بقوله (مصفرا) جاء في تفسير التحرير والتنوير: (والمُصْفَر: اسم فاعل مقتضٍ الوصف بمعناه في الحال، أي فرأوه يَصير أصفر، فالتعبير بـ { مصفراً} لتصوير حدثان الاصفرار عليه دون أن يقال: فرأوه أصفر)[١١٥] ثم إن (مصفرا) رسمت التحول والتغيير من اللون الأخضر إلى الأصفر ببعده الزمني في واقع حياة النبات لأن النبات لا يتحول لونه إلى الصفرة مباشرة وإنما يستغرق ذلك مدة من الزمن وهكذا المواضع الأخرى التي وردت فيها هذه اللفظة.

وجاءت لفظة (مسودا) في ثلاثة مواضع تصور حالة التدرج في الحدوث من ذلك قوله تعالى: (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) [١١٦] وكذلك قوله تعالى: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) [١١٧] وقوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)[١١٨]. من ذلك يتضح أن المفردة العربية قد وردت في السياق القرآني على هيكلية وبناء صرفي يلائم المعنى الذي وضعت من أجله ومن هنا فقد وجدنا أن مفردة اللون التي أوردناها تتغاير في بنائها الصرفي من موضع إلى آخر وما ذلك إلا لاختلاف معاني الأبنية، ومن بينها اختلاف الدلالة بين صيغة اسم الفاعل (مفعل) وصيغة الصفة المشبهة (أفعل . فعلاء) فالأولى تدل على الحدوث والتجدد والثانية تدل على الثبوت وهما معنيان متضادان، إذا المقصود بالثبوت في حالة اتصاف الذات باللون هو عدم الثبات، وقد أسهم بناء (مفعل) في وضوح الدلالة ورسم المتغيرات التي ورد ذكرها في السياق القرآني في حالة خضرة الأرض وصفرة النبات، وإن ذلك قد حصل على تدرج وتحول وانتقال، وأسهم بناء (فعلاء) في كشف ثبوت اللون في (بياض) يد موسى عليه السلام ولون البقرة (الصفراء) وقد حصل ذلك بشكل مفاجئ ومباشر من غير تحول ولا تدرج ودل على ثبوت، وهكذا في الحالات الأخرى التي مر ذكرها في هذه الأمثلة التي أوردناها.

وهذا انما يشير الى ان القرآن الكريم قد استعمل المفردة العربية بشكل يبهر العقول ويرتقي الى مرتبة الاعجاز اللغوي في هذا الباب.

بعد هذا كله فإن القرآن العظيم على كثرة سوره البالغة أربع عشرة سورة بعد المائة منها الطوال

البالغة حد الطول والقصار البالغة نهاية القصر والذي امتد نزوله ثلاثة وعشرون عاماً وما أشتمل عليه من توجيه وعقائد وفقه وأحكام ومعارف وعلوم فقد كان جل استعمال القرآن الكريم إنما هو من الكلمات الثلاثية في الأفعال والأسماء. مجردة ومزيدة بل تكاد تكون كل ألفاظه هكذا. اما الأفعال الرباعية المجردة فقد جاء منها فعل واحد وعلى صورة واحدة في موضعين هما:

١. في قوله تعالى:(أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور) [١١٩]

٢. وقوله تعالى:(وإذا القبور بعثرت) [١٢٠]

وبعض المفردات المشتقة من مضعف الرباعي مثل (زلزال) و(وسواس)

أما الأسماء الرباعية المجردة فقد جاء منها في القرآن الكريم ستة أسماء على مثال (جعفر) مثل (برزخ وسرمد) وعلى مثال (زبرج) جاء بالتاء (سلسلة، وشرذمة) ولم يرد في القرآن الكريم هذا البناء من غير تاء. وأما الأسماء الخماسية المجردة فلم يرد في القرآن شيء منها. والأسماء الرباعية المزيدة بحرفين غير المشتق جاء في القرآن الكريم منه ثلاثة ألفاظ هي (العنكبوت) ولقد تكررت في آية واحدة في قوله تعالى:(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)[١٢١]. ولفظة (زمهريرا وقمطريرا) وذلك في قوله تعالى: (إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا)[١٢٢] وقوله سبحانه (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا)[١٢٣] والاسم الخماسي المجرد لا يزاد عليه إلا حرف مد قبل الآخر، وقد جاء منه في القرآن الكريم لفظان هما (زنجبيل، سلسبيل) وذلك في قوله تعالى (ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا عيناً فيها تسمى سلسبيلاً)[١٢٤].

ومما تجدر ملاحظته أن هذه الأسماء الرباعي المزيد بحرفين والخماسي المزيد بحرف اجتمع من هذين البنائين أربعة ألفاظ في سورة واحدة هي (الإنسان) وذلك في الآيات (١٠، ١٣، ١٧، ١٨) وهذه الألفاظ هي (قمطريرا، زمهريرا، زنجبيلاً، وسلسبيلا) فلم اختصت هذه السورة بهذه الألفاظ؟ الله أعلم بأسرار كتابه[١٢٥]. يتضح من ذلك أن استعمال القرآن الكريم للألفاظ الزائدة على ثلاثة أحرف كان قليلاً قياسياً لما استعمله من الألفاظ الثلاثية.

وهذا يؤيد ما ذكرناه من قبل من ميل العرب إلى استعمال الأبنية الثلاثية وذلك لأن الكلمة تكون طيبة المجرى على اللسان خفيفة عند النطق، جميل وقعها على السمع. وقد جرت ألفاظ القرآن الكريم على هذا المقياس الدقيق والميزان المحكم فكانت ألفاظه دالة على معانيه فبلغ بذلك أرقى درجات الأحكام في الصياغة العربية.

الخاتمة:

وفي نهاية المطاف. أسفرت هذه الدراسة عن جملة من النتائج نذكر منها:

١- بعد ان استعراضنا مميزات الحرف وما يشتمل عليه من دلالة وإيحاء على نحو منفرد، ومن ثم ما يدل عليه من معان وهو ضمن المفردة وجدنا أن معنى تلك المفردة هو في حقيقة الأمر يتألف من مجموع معاني الحروف والأصوات التي تتألف منها.

٢- امتازت المفردة العربية بصفات كثيرة من بينها ظاهرة الاشتقاق بأنواعه التي أوردناها ونظام التقليبات فقد ثبت من خلال البحث أن المفردات التي ترتبط مع بعضها فتعود إلى جذر واحد تدل على معان متنوعة لكنها غالبا ما تلتقي لتدل على معنى موحد حتى وإن تغير أحد الحروف التي تدخل في تركيبها.

٣- المفردة العربية مستمدة من طبيعة الحياة العربية فهي نابعة من البيئة التي ينشأ فيها المتكلم مستوحاة من مكوناتها وما اشتملت عليه من صور وظواهر ومشاعر وانطباعات.

٤- هذا البحث يحاول الكشف عن جوانب متنوعة من أسرار المفردة العربية ليضعها بين أيدي الدارسين والمعنيين ليزداد تعلقهم بهذه اللغة الأصيلة المتضمنة لأنواع العلوم والمعارف فيدفعهم ذلك إلى الرغبة في دراستها ومعرفة المزيد من أسرارها وخفاياها.

٥- أظهر البحث أن القرآن الكريم قد استعمل المفردة العربية على نحو أمثل وقد اختار لما أراده من المعاني المفردات المناسبة وهذا إنما يعطي دلالة واضحة أنه على المتكلم أن يبحث عن المفردة الملائمة ليضعها للمعنى الذي يريد حتى لا تختلط المفاهيم وتتعدد المعاني وتتداخل الإيحاءات.

٦- اتضح من خلال البحث أن المفردة هي المكون المهم في المنظومة اللغوية ولكنها في كل الأحوال تعتمد على الحرف الذي يمنحها قوة في تحديد المعنى على نحو دقيق، وذلك ما يؤكده الميزان الصرفي وما انبثق عنه من مباحث متنوعة مثل المجرد والمزيد والمشتقات وما توحي به حروف الزيادة من معان جديدة مثل التعدية والمشاركة والمطاوعة وغير ذلك من المحاور الأخرى التي كان لها أبلغ الأثر في تحديد دلالة المفردة وما توحي به من تداعيات.

حاولنا من خلال هذه الدراسة استقصاء وجمع وتبويب وترتيب الخواص التي تميزت بها المفردة العربية لتكون في متناول الدارسين والمعنيين

والمهتمين بهذا المنحى من الدراسات والابحاث بعد ان كان معضمها مفرقا في بطون الكتب ولم يدرس على نحو مستقل من قبل.

الهوامش:

١- الإيضاح للزجاجي ص ١٠٠
٢ – ينظر المغني لابن هشام ص ٣٠١، ٧٩٢
٣ – ينظر المصدر نفسه ص ٣٠١، ٧٩٢
٤- عبقري من البصرة ص ٤٠
٥- ينظر المصدر نفسه ص٣٦
٦- جمهرة اللغة ج ١ ص ٧. ٨
٧- لسان العرب حرف الظاء
٨- سر صناعة الاعراب حرف الظاء
٩- الصاحبي، ابن فارس ص ٧١
١٠ العين حـ ١ ص ٤٤
١١ لسان العرب حرف القاف
١٢ اللسان حرف الباء
١٣ العين ص ٥
١٤ العين ج١ ص٨
١٥ ينظر الخليل أحمد أعماله ومنهجه د. مهدي المخزومي ص ٣٦٠
١٦ – ينظر التهذيب للأزهري حـ ١ ص ٢١
١٧ – الكتاب حـ ٢ ص ٣٨١ – ٣٢٣ – ٣٢٤
١٨ – العين حـ ١ ص ٢
١٩ – العين ح ١ ص ٣
٢٠ – المزهر للسيوطي حـ ١ ص ٤٥
٢١ – العين حـ ١ ص ٩
٢٢ – سر الفصاحة ص ٤٨ – ٤٩
٢٣ – أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٤٢٧
٢٤ – ينظر الممتع في التصريف ص٢٣. شذى العرف في فن الصرف ص ٢١

٢٥ – اللغة العربية معناها ومبناها الدكتور تمام حسان ص ١٠٦

٢٦ – ينظر مثلاً الخصائص لابن جني حـ ١ ص ٣٧٦

٢٧ – غافر/٣

٢٨ – الزمر/٥٣

٢٩ – آل عمران/٣١

٣٠ – الزمر/٥

٣١ – طه/٨٢

٣٢ – نوح/١٠

٣٣ – البقرة/٢٢٥

٣٤ – الكشاف حـ ٢ ص ٩٢ وانظر الرضي على الكافية حـ٢ ص ٢٢٠

٣٥ – الكشاف حـ ٣ ص ٣١

٣٦ – الكشاف حـ ١ ص ٣٤

٣٧ – بدائع الفرائد حـ ١ ص ٢٣

٣٨ – ينظر الشافية في علم الصرف ص ١٧ وما بعدها

٣٩ – شرح التسهيل حـ ٣ ص ٢٤٢

* ذلك أن فعل الأمر لا يكون الا للمخاطب ولا يبنى للمجهول ولايكون للغائب ولأنه حدث لما يوجد بعد حتى يتعلق بمفعول أو زمان أو مكان أو وصف بخلاف الماضي والحاضر فإنهما متعلقان بما ذكر فجاز حذف فاعلها والاستغناء عنه والاكتفاء بمتعلقه. ينظر المصدر نفسه والصفحة (١١)

٤٠ – المبنى للمجهول وتراكيبهُ ودلالته في القرآن العظيم شرف الدين الراجحي ص ٩

٤١ – فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي ص ٢٨٢ – ٢٨٣

٤٢ – أسرار العربية لأبي البركات ابن أبي سعيد الأنباري ص ٩٧ – ٩٨

٤٣ – ينظر شرح المفصل لابن يعيش حـ ٤ ص١٤٤ – ١٥٢

٤٤ – نفسه و الصفحة نفسها

٤٥ – كشف الطرة ص ٧٩ – ٨٠

٤٦ – الفروق اللغوية ص ١٢ – ١٣

٤٧ – همع الهوامع حـ ٢ ص ٩٧

٤٨ – المقتضب حـ ٣ ص ١٦١

٤٩ – نوح / ١٠

٥٠ – التفسير الكبير حـ ٣٠ ص ١٣٨

٥١ – ابن يعيش حـ ٦ ص ٣

٥٢ – التصريح حـ ٢ ص ٦٥

٥٣ – ينظر معاني الأبنية العربية د. فاضل ص ٤١

٥٤ – الكتاب حـ ٢ ص ٢٢٠

٥٥ – الخصائص حـ ٢ ص ١٥٧ ط بيروت

٥٦ – ينظر مفهوم مصطلح اللغة تحقيق في وهم الاستعمال. د. علي كاظم أسد بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية، الرياض، المملكة العربية السعودية العدد٩ السنة١٩٨٦

٥٧ – المزهر للسيوطي حـ ١ ص ٤٠٠

٥٨ – المزهر حـ ١ ص ٣٥١–٣٥٣

٥٩ – المصدر نفسه والصفحات نفسها

٦٠ – المصدر نفسه والصفحات نفسها

٦١ – المثل السائر حـ ١ ص ١٤٣

٦٢ – ضحى الإسلام. احمد أمين ص ٣٧

٦٣ – فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ص ١٤١

٦٤ – المصدر نفسه

٦٥ – فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ص٩٦

٦٦ – مقدمة كتاب العين ص ٣

٦٧ – الخصائص لابن جني ج٢ ص١٣٥

٦٨ – المصدر نفسه ج٢ ص ١٣٦

٦٩ – الخصائص لابن جني ج٢ ص ١٣٦.

٧٠ – ينظر: المصدر نفسه ج٢ ص ١٣٧.

٧١ – الخصائص ج٢ ص ١٦٣.

٧٢ – الخصائص ج٢ ص ١٥٧.

٧٣ – المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٧٤ – فقه اللغة، محمد المبارك ص ١٠٥

٧٥ – البيان والتبيين ج١ ص ١٣٦
٧٦ – الوساطة ص ١٤
٧٧ – ينظر البيان والتبيين حـ ١ ص ١٣٦
٧٨ – الصناعتين ص ٦٧
٧٩ – العمدة حـ ١ ص ١٣٣
٨٠ المثل السائر حـ ١ ص ١٦٨
٨١ المثل السائر حـ ٧ ص ١٦٨–١٦٩
٨٢ – البيان والتبين حـ ١ ص ٤٠
٨٣ – يوسف / ٧٢
٨٤ – يوسف / ١٨
٨٥ – الفجر / ٧٣
٨٦ – النحل / ١
٨٧ – يونس / ٢٤
٨٨ – الحجر / ٦٣–٦٤
٨٩ – الطور / ٢٢
٩٠ – مريم / ٧٩
٩١ – القمر / ٥٤–٥٥
٩٢ – المجادلة / ١١
٩٣ – الإتقان في تفسير القرآن حـ ١ ص ١٩٧
٩٤ – البحر المحيط حـ ١٨٤ وينظر لمسات بيانية د. فاصل السامرائي ص ١٦٠
٩٥ – بيان أعجاز القرآن ص ٣٦
٩٦ – درة الغواص في أوهام الخواص ص ١٩٤
٩٧ – سبأ / ١٣
٩٨ – الزمر / ٢٠
٩٩ – سبأ / ٣٧
١٠٠ – الشعراء / ١٤٨

١٠١ – البيان والتبين حـ ١ ص ١٨– ١٩
١٠٢ – البقرة / ١٠٤
١٠٣ – ينظر: المعجم المفهرس:٢٣٤، ٣٧٠، ٤٠٩
١٠٤ – الحج:٦٣
١٠٥ – الكشاف:١٦٨/٣
١٠٦ – التحرير والتنوير٣١٨/١٧
١٠٧ – البقرة: ٦٩
١٠٨ – الصافات: ٤١. ٤٦
١٠٩ – التحرير والتنوير:١١٢/٢٣. ١١٣
١١٠ – ينظر المعجم المفهرس: ١٤١
١١١ – طه: ٢٣.٢٢
١١٢ – الأعراف: ١٠٨ والشعراء:٣٣
١١٣ – الكشاف: ١٣٨/٢
١١٤ – الروم: ٥١
١١٥ – التحرير والتنوير: ١٢٥/٢
١١٦ – الزمر: ٦٠
١١٧ – النحل: ٥٨
١١٨ – النحل: ٤٨
١١٩ – العاديات / ٩
١٢٠ – الانفطار / ٤
١٢١ – العنكبوت / ٤١
١٢٢ – الدهر / (١٧ – ١٨)
١٢٣ – الدهر/ (١٧–١٨)
١٢٤ – الدهر (١٧ – ١٨) تراجع
١٢٥ – ينظر مجلة كلية اللغة العربية (الرياض) العدد التاسع / الشيخ محمد عظيمة.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) دار الندوة الجديدة بيروت (د.ت)
٢. أسرار العربية، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت٥١٣هـ) تحقيق محمد بهجة البيطار– مطبعة الترقي دمشق ١٩٥٧.
٣. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين للشيخ الإمام كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري. تحقيق: محمد محي الدين المكتبة العصرية صيدا بيروت.
٤. الإيضاح في علل النحو / للزجاجي (ت٣٤٠هـ) تحقيق د. مازن مبارك – بيروت ١٩٨٦م.
٥. البحر المحيط، أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي. مكتبة ومطابع النصر الحديث – الرياض – السعودية (د.ت).
٦. بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن بكر الدمشقي المشتهر بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) تصحيح وتعليق محمد منير أغا الدمشقي المطبعة المنيرية
٧. البيان والتبين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون– مكتبة الخانجي – القاهرة ط٣ (١٩٦٨م).
٨. التفسير الكبير، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمران الرازي (ت٦٠٦هـ) دار الكتب العلمية – طهران.
٩. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ) تحقيق عبد السلام هارون – دار القومية العربية للطباعة، مصر ١٩٦٤.
١٠. جمهرة اللغة، ابن دريد. تحقيق: رمزي منير بعلبكي. (النّاشر): دار العلم للملايين – بيروت، (ط١) ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
١١. الخصائص. صنعة أبي الفتح عثمان بن جني. تحقيق: محمد علي النجار. دار الكتاب العربي. بيروت – لبنان (د.ت).
١٢. الخليل أحمد أعماله ومنهجه د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت– لبنان.
١٣. سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم مصطفى وعبد الله أمين – مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط:١ مصر ١٩٥٤.
١٤. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تحقيق عبد المتعال الصعيدي – القاهرة ١٩٥٣.
١٥. شذا العرف في فن الصرف، الشيخ أحمد الحملاوي ط ١٤٢٦م.
a. .شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ،ابن مالك ،تحقيق محمد كامل بركات ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ،١٩٦٨

١٦. شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهري– دار إحياء الكتب العربية.
١٧. شرح المفصل، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش الموصلي. عالم الكتب – بيروت – مكتبة المثنى.
١٨. شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين أحمد بن الحسن الأسترآبادي النحوي (ت٦٨٦هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد نور الحسن ومحمد الزفزاف. دار لكتب العلمية ـ بيروت، ١٩٧٥.
١٩. شرح كافية ابن الحاجب، رضي الدين الاسترآبادي، تعليق يوسف حسن عمر– ليبيا، منشورات جامعة بنغازي.
٢٠. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية، أبو الحسن أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق وتقديم د. مصطفى الشويحي–بيروت مطبعة بدران ١٩٦٣م.
٢١. الصناعتين لابي هلال العسكري الحسن بن عبد الله (ت٣٩٥) تحقيق البجاوي وابي لفضل ابراهيم القاهرة ١٩٥٢
٢٢. ضحى الإسلام. احمد أمين، مكتبة النهضة العربية . القاهرة ١٩٦١
٢٣. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط١ (١٩٥٥م).
٢٤. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) تحقيق مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي – طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨٦م.
٢٥. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري (ت٤٠٠) تحقيق لجنة إحياء التراث العربي – دار آفاق الجديدة – الدار العربية للكتاب – تونس ط٦ (١٩٨٣)
٢٦. فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) تحقيق د. فائز محمد، مراجعة وفهرسة د.أميل يعقوب و د. محمد الاسكندري ١٣٩١هـ
٢٧. الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون – الهيأة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٧م.
٢٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمد بن عمر جار الله الزَّمخشري (ت٥٣٨هـ). تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ط٢ (٢٠٠١م).
٢٩. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ) مطبعة دار صادر للطباعة والنشر – بيروت، (د.ت).
٣٠. اللغة العربية معناها ومبناها، الدكتور تمام حسان – مصر الهيأة العامة للكتاب ١٩٦٦م.
٣١. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، الدكتور فاضل صالح السامرائي الأستاذ في كلية الآداب – جامعة بغداد (د.ت)
٣٢. المبني للمجهول وتراكيبه ودلالاته في القرآن العظيم، الدكتور شرف الدين الراجحي، دار المعرفة الجامعية، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٩٩م.
٣٣. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٣٩م.

٣٤. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي. تحقيق: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ورفيقه، مطبعة عيسى البابي الحلبي
٣٥. معاني الأبنية في العربية، الدكتور فاضل صالح السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على طبعه ١٩٨١م.
٣٦. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عبد الله جمال الدين بن يوسف ابن هشام (ت٧٦١هـ). تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، مراجعة سعيد الأفغاني – بيروت، دار الفكر ط٢ (١٩٦٩م).
٣٧. المقتضب، محمد بن يزيد المبرِّد. تحقيق: لجنة دار إحياء التراث الإسلامي – القاهرة ١٣٨٦هـ.
٣٨. الممتع في التصريف، ابن عصفور. تحقيق: د. فخر الدين قباوة. سوريا المكتبة العربية حلب ط١ (١٩٧٠م).
٣٩. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون وعبد العالي مكرم – ساعدت جامعة الكويت على طبعه.
٤٠. الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٦٦هـ) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط٣ (د.ت)